الأبعاد الجمالية والفلسفية والإنسانية والأخلاقية والدينية في ملحمتي " الإلياذة " و " الأوديسية " لهوميروس – دعوة إلى السلام ونبذ الحروب –

د.برهان أبو عسلي*

الملخَّص

"الإلياذة" و"الأوديسية" ملحمتا هوميروس الخالدتان عبر الزمن . كانتا – ولا تزالان – منبعاً ثراً لكثير من المبدعين والقراء.

تسعى هذه الدراسة إلى الاقتراب من الرؤية الفلسفية والكونية عند هوميروس، وذلك من خلال الوقوف على الأبعاد الجمالية والفلسفية والإنسانية والدينية في هاتين الملحمتين. ولم تخل هذه الدراسة من الإجابة عن بعض التساؤلات التي تهمُّ القراء والباحثين في مجال الدراسات العالمية والمقارنة. فضلاً عن أنها صوبت بعض الهفوات التي وردت في الملحمتين، والتي اعتاد القراء والدارسون على تداولها دون تأمل وتفكر. من ذلك مثلاً: أسباب الحرب الحقيقية بين الإغريق والطرواديين، والأسباب الكامنة وراء غضبة أخيليوس، ومدة الحرب التي استمرت عشرين سنة، وليس عشر سنوات كما وردت في الملحمتين. وأن غياب أوديسيوس عن موطنه إيثاكا استمر ثلاثين سنة وليس عشرين كما يذكر هوميروس. ورأت الدراسة أنَّ الملحمتين تعالجان موضوعاً واحداً هو "قصة أوديسيوس" وليس موضوعين منفصلين عن بعضهما. وخلصت الدراسة إلى أنَّ هاتين الملحمتين تحملان رؤية إنسانية عميقة الأبعاد – ربَّما فكر هوميروس فيها وأرادها وهو ينشدهما – وهي الدعوة إلى السلام ونبذ الحروب

* أستاذ مساعد جامعة دمشق ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية.

Aesthetic, philosophical, human, moral and religious dimensions In the epics "The Iliad" and "Odyssey" by Homer A call for peace and rejection of war

Dr. Burhan Abou Asali

Abstract

The "Iliad" and "Odyssey" are Homer's two epic epics. They were and are a rich source for many creators and readers.

This study attempts to approach Homer's philosophical and cosmic vision by examining the aesthetic, philosophical, human, and religious dimensions of these two epics. This study was not free from answering some questions that concern readers and researchers in the area of global and comparative studies. In addition, some of the errors mentioned in the two epics that readers and scholars used to circulate without meditation and reflection have been corrected. For example: the real causes of the war between the Greeks and Trojans, the reasons for Achelius' anger and the length of the war, which lasted twenty years rather than ten years, as mentioned in the two epics. And Odysseus' absence from his home in Ithaca lasted for thirty years, not twenty, Homer notes. The study found that the two epics deal with one topic, "The Story of Odysseus", and not with two separate topics. The study concluded that these two epics have a deep humanistic vision - perhaps Homer thought about it and wanted it as they searched for it - the call to peace and the rejection of war.

الأبعاد الجمالية والفلسفية والإنسانية والأخلاقية والدينيةفي ملحمتي " الإلياذة " و" الأوديسية[1] " لهوميروس – دعوة إلى السلام ونبذ الحروب –

مع كلِّ قراءة في ملحمتي هوميروس[2] "الإلياذة والأوديسية" يكتشف المرء شيئاً جديداً يدعوه إلى التأمل والتفكر والتساؤل: ماذا يريد هوميروس أن يقول لمستمعه، ومن بعده لقرائه ومتلقيه الذين تعددت لغاتهم وثقافاتهم وأوطانهم عبر العصور؟ أيريد أن نعيش معه تلك الوقائع والأحداث التي تفنَّن في صياغتها ورواياتها المدهشة؟ أيريد منَّا أن نعيش الحرب التي تجرَّع اليونانيون والطرواديون ويلاتها ومآسيها وما تركت فيهم من أحزان وآلام لا يمحوها الزمن منذ ثلاثة آلاف عام؟ أيريد منَّا أن نعايش الماضي ونتمثَّله شما آثام، وهم يلهون؟ أهم حقيقة أم خيال ووهم؟ أم يريد أن يُذكِّرنا دائماً بتفاحة الجمال وما جرَّته على من اختارها من خراب ودمار؟

من أين يبدأ المرء في دراسة هاتين الملحمتين اللتين كلما تعمق فيهما انهالت عليه الأسئلة من كلِّ حدب وصوب وأعاد التساؤل من جديد في كلِّ مسألة أتى عليها

[1] – ترجم العرب اسم هذه الملحمة بصيغ مختلفة؛ من ذلك: الأوديسة، الأوديسا، الأوديسية، الأوذيسية. وقد تمَّ الاعتماد على الدكتور أحمد عتمان في ترجمة معظم أسماء الأعلام والأماكن في كلا الملحمتين لتضلعه في اللغة اليونانية وتراثها، ولكونه من أبرز الذين أسمهموا في تقديم التراث الأدبي اليوناني ونقله ودراسته وترجمته عن اليونانية مباشرة.

[2] – هوميروس من أشهر كتاب الملاحم الإغريقية وأقدمهم . اختلف الباحثون في العصر الذي عاش فيه؛ فسليمان البستاني يُرجِّح العصر الذي عاش فيه ما بين نهاية القرن العاشر أو بداية القرن التاسع قبل الميلاد ويستدل على ذلك بأدلة موثقة. انظر البساني، سليمان: مقدمة ترجمة " الإلياذة" في: هوميروس: الإلياذة. ترجمة: سليمان البستاني . كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة2011 ص 20. (وقد ظهرت ترجمة البستاني لهذه الترجمة بعنوان: "إلياذة هوميروس معربةً نظماً وعليها شرح تاريخي وأدبي وهي مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعره وآداب اليونان والعرب ومذيلة بمعجم عام وفهارس . بقلم سليمان البستاني . طبع بمطبعة الهلال بمصر عام 1904). ويؤيد الدكتور محمد صقر خفاجة رواية المؤرخ هيرودوت الذي عاش في منتصف القرن الخامس ق.م. وقال إن هوميروس نظم أشعاره قبل ذلك بأربعة قرون أي في منتصف القرن التاسع ق.م. . انظر خفاجة، محمد صقر: تاريخ الأدب اليوناني (سلسلة الألف كتاب 61)، مكتبة النهضة المصرية 1956، ص 43 وما بعدها. ويتفق لطفي عبد الوهاب يحيى مع محمد صقر خفاجة في أنَّ "الإلياذة" و"الأوديسية" ظهرتا في منتصف القرن التاسع ق.م. انظر يحيى، لطفي عبد الوهاب: عالم هوميروس. في: مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام ، الكويت، المجلد الثاني عشر، العدد3، اكتوبر– نوفمبر– ديسمبر1981، ص 28. أمَّا الدكتور أحمد عتمان فيرجِّح أن يكون هوميروس قد عاش ما بين 850–750 ق.م . انظر عتمان، أحمد: الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً. سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 77، مايو1984، ص23.

هوميروس أو ألمح إليها؟ وإذا وقف المرء على ما كُتب عنهما من دراسات وأبحاث ازدادت حيرته وتأملاته وانبهاره بعظمة هوميروس وبفلسفته الإبداعية وما فيها من رسائل كثيرة تناثرت في عمليه الخالدين اللذين تركا آثاراً كثيرة فيمن جاء بعده ابتداء من أيسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس مروراً بفرجيل ودانتي وشكسبير وغوته وشيللر وجون ميلتون وجيمس جويس ونيكوس كازانتزاكيس وإيفند يونسن ومحمود درويش والسياب والبياتي وسميح القاسم وغيرهم الكثير من الكتاب والشعراء والفنانين الذين لا يزالون ينهلون من معين هوميروس وملحمتيه تصريحاً أو تلميحاً من حيث أقواله، أو أفكاره، أو أساطيره، أو طريقته الأخَّاذة في فنِّ السرد والوصف. من أين يبدأ المرء في قراءة كلِّ ذلك الذي تركه هوميروس في ملحمتيه؟ وهل يمكن للمرء أن يفهم هاتين الملحمتين بعيداً عن الأسطورة التي كانت الأساس الذي بنى عليه هوميروس ملحمتيه ومنطلقه في وصف الأحداث وما تلاها من ويلات؟ وهل يستطيع المرء أن يغفل النبوءة المتعلقة بموت أخيليوس؟ وهل يستطيع المضي قُدماً في قراءة هذين العملين دون الوقوف على علاقة الإنسان بآلهته ومدى إيمانه بها؟ ألا يجدر بالمرء أن يتساءل عن طروادة تلك المدينة التي لم يشهد التاريخ نظيراً لها في العظمة والمناعة وقوة أبنائها؟ ما سرُّ حبِّ زيوس لطروادة ولماذا وافق على تدميرها وخرابها؟ ولماذا كان أبللون يرعاها ويحميها دائماً؟ من هي هيليني حقيقة؟ وما سرُّ غضبة أخيليوس؟ وماذا تعني عودة أوديسيوس إلى وطنه، تلك العودة المليئة بالمشاق والأهوال، وماذا تمثِّل بينلوبي؟

كل هذه الأسئلة وغيرها تثير قارئ الملحمتين وتحرِّضه على استدعاء كل ما لديه من أفكار وقراءات وثقافات ومناهج أدبية لفهم مرامي هوميروس وغاياته بعيدة الغور في قراءة الحياة والكون والإنسان. وقد لا يستطيع المرء أن يصل كلياً إلى مبتغاه في الوقوف على هذه الرؤية الفلسفية والكونية التي يؤمن بها هوميروس بكل أبعادها وجوانبها، أو تستعصي عليه أمور كثيرة حفلت بها الملحمتان.

هذه الدراسة محاولة للاقتراب من الرؤية الفلسفية والكونية الهومرية من خلال قراءة هذين العملين الخالدين اللذين لا يزالان منبع إلهام ثرٍّ لقرائح الأدباء والمبدعين في جميع الأمم، وكذلك للدارسين ومحبي الجمال والباحثين عن أسرار خلود الأعمال الأدبية عبر العصور.

وبناءً على هذا يمكن تحديد الجوانب أو القضايا التي من خلالها ستتمُّ الإجابة عن كثير من الأسئلة التي طُرحت والتي تُشكِّل بمجموعها التصور الذي ارتأيته لقراءة هاتين الملحمتين. ويتمثل هذا التصور في الوقوف أولاً: على الواقع والأسطورة في ملحمتي هوميروس، وثانياً: التوقف عند الأبعاد الجمالية والفلسفية والإنسانية والأخلاقية والدينية في هاتين الملحمتين، وأخيراً الحديث عن المرأة ودلالاتها الرمزية بصفتها محور الملحمتين بدايةً ونهايةً.[3]

أولاً: "الإلياذة" و "الأوديسية" ما بين الواقع والأسطورة

طبقاً لما تحدَّث عنه فلاسفة الفن ومنظروه، أفلاطون وأرسطو، ومن جاء بعدهم. فإنَّ الفنَّ لدى المبدعين في مجال الأدب والفنون الموازية، كالرسم والنحت والموسيقا والسينما وغيرها، لا يتطابق تطابقاً كلياً مع الواقع والحقيقة مهما حاول المبدعون واجتهدوا في نقله إلى المتلقي. إنَّه من الواقع، لكنه ليس الواقع كما هو. ويتثمل ذلك في نظرية "الانعكاس"، أو كما يسميها هاري ليفن نظرية "الانكسار"[4]. وفي هاتين الملحمتين فعل

[3] – تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هناك دراسات كثيرة كُتب عن هاتين الملحمتين وعرَّفت بهما وتناولت قضايا كثيرة تتعلق بهوميروس؛ حياته وتاريخ وجوده، واختلاف الآراء في ذلك، ونسبة هاتين الملحمتين إليه، وما رافق ذلك من تناقضات وجدال ونقاش حول هذه المسألة ابتداءً من القرن السادس ق.م. وحتى يوم الناس هذا. كل هذه الدراسات قيِّمةٌ في بابها وغايتها والهدف الذي كُتبت من أجله، ومفيدة كذلك للقارئ ولمن يبحث في إبداع هوميروس. وقد اعتمد البحث على أهم هذه الدراسات التي اقتربت في هدفها وغايتها من هدفه وغايته. وتجاوز كثيراً من تلك الدراسات التي لا تُقدِّم فائدة كبيرة.

[4] – انظر في ذلك ليفن، هاري: انكسارات. مقالات في الأدب المقارن . ترجمة: عبد الكيم محفوظ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق1980، ص 9.

هوميروس ذلك. لقد أراد أن يصور واقع الأحداث كما سمعها، أو كما وصلت إليه بعد ثلاثة قرون من الزمن. واجتهد كثيراً في الاقتراب من وقائع تلك الأحداث والزمن الذي جرت فيه. إنّه فنان كغيره من الفنانين الذين يحاولون أن يصوروا ما جرى، أو ما يمكن أن يكون قد جرى، أو ما نُقل إليهم عبر الرواية الشفوية التي تتزيَّا في كلِّ مرة بزيٍّ جديد من حيث الأسلوب والصياغة والأفكار والمضامين، وربما التكرار أو التداخل أو النقص أو الزيادة[5]. ودون شكٍّ هناك خيال المبدع، وثقافته، وأفكاره، وحالته النفسية، ورؤيته التي لا بدَّ أن يُضمِّنها أيَّ عمل يقوم به. وفوق هذا وذاك عليه أن يراعي المتلقي، وهو هنا المستمع الذي كانت تروى له هذه الملاحم.

في كلا الملحمتين يصور هوميروس أحداثاً ووقائع سبقت وجوده بثلاثة قرون على أقل تقدير. وقد حاول بكل ما أوتي من عبقرية وخيال أن يُقرِّب تلك الأحداث إلى مستمعه ويجعله يعايش ما جرى وما حدث، وربَّما ما لم يجر[6]. ففي "الإلياذة" يصور الحرب التي جرت أحداثها بين الإغريق والطرواديين على الأراضي الطروادية، وخاصة حول مدينة طروادة التي تقع على مدخل البحر الأسود في الشمال الغربي لآسية الصغرى. وقد حاصرها الإغريق تسع سنوات قبل اقتحامها وتدميرها في السنة العاشرة. أمَّا "الأوديسية" فتصف رحلة عودة أوديسيوس إلى موطنه إيثاكا وما عاناه من مشاق وأهوال وطول زمن حتى وصل إلى موطنه واستعاد ملكه والتقى بزوجته بنيلوبي.

---

[5] – انظر عتمان، أحمد: مقدمة ترجمة " الإلياذة "، لهوميروس، ترجمة وتحرير: أحمد عتمان ومشاركة لطفي عبد الوهاب يحيى، السيد عبد السلام البرواي، منيرة كروان، وعادل النحاس، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط2 ، 2008 ، ص41. ومنذ الآن سنشير إلى الاقتباسات من هذه الترجمة بعبارة : أحمد عتمان وفريقه المشارك .

[6] – يتحدَّث باري بي باول عن هاتين الملحمتين ويؤكد أنهما عملان بعيدان عن الواقع والحقيقة وليستا تاريخاً لما كان، وما فعله هوميروس ليس إلَّا إيحاء ، وأن الإلياذة ملحمة خيالية أسطورية، والأوديسية حكاية شعبية خرافية. انظر باول، باري بي: هوميروس. ترجمة: محمد حامد درويش، مراجعة: شيماء طه الريدي، مؤسسة هنداوي سي آي سي 2019 ، ص 119 وما بعدها .

وأسباب حرب طروادة الحقيقية كما يشير الباحثون والمؤرخون هو رغبة الإغريق (اليونانيين) في السيطرة على مدينة طروادة ذات الأهمية التجارية والاقتصادية والعسكرية[7]. أمَّا السبب الذي يقدِّمه هوميروس لقيام الحرب بين اليونانيين والطرواديين من خطف الأمير الطروادي باريس لهيليني زوجة ملك إسبرطة مينيلاؤس هو الذريعة أو السبب المباشر والمعلن لقيام هذه الحرب. ويرى الدكتور أحمد عتمان أنَّ " رواية هوميروس لأسباب الحرب الطروادية هي رواية أسطورية، أي الرؤية الشاعرية والملحمية لحرب حقيقية وقعت بالفعل في تاريخ يقع ما بين 1280 و 1183 برأي معظم المؤرخين. المهم أنَّ هوميروس يصف أحداثاً تاريخية قديمةً جداً بالنسبة له إذ تسبقه بحوالي ثلاثة قرون.وهو يستمد روايته من الموروث الشعري المألوف والمتداول شفاهة ".[8]

إذن هناك سببان لقيام الحرب بين الإغريق والطرواديين؛ سبب واقعي ومنطقي، وسبب أسطوري خيالي. وكلاهما كان له تأثيره في بناء الأحداث وتصوير ما جرى فيها. وإن كان كلاهما في الملحمتين غير واضح ومعلن صراحة. فليس هناك أية إشارة في الملحمتين تدلُّ على نية الإغريق في السيطرة على طروادة والتحكم بها اقتصادياً وعسكرياً. وإنَّما نلاحظ فقط رغبتهم في تخليص هيليني من الطرواديين وإعادتها إلى زوجها مينيلاؤس وإنهاء تلك المسألة بالسلم أو الحرب. وعودتهم إلى ديارهم بعد أن أنهكتهم السنوات التسع من الحرب وحصار طروادة والبعد عن الأوطان. كانت الرغبة تحدوهم جميعاً إلى إنهاء تلك الحرب، وأنَّ ما فعلوه طوال هذه السنوات ليس إلَّا عبثاً، ولم يجرَّ عليهم كلُّ ذلك إلَّا الموت والفقد والحزن والآلام. كما أنَّ أسطورة هروب هيليني مع باريس لم تكن واضحة المعالم في "الإلياذة"، فهوميروس لم يُعرها أية أهمية؛ بل إنَّه لم يشر إلى تفاصيلها وكيف جرت. كل ما نعرفه أنَّ باريس كان في وفد إلى مدينة

[7] – انظر يحيى، لطفي عبد الوهاب: عالم هوميروس. المرجع السابق، ص 28، ص35 وما بعدها.

[8]– انظرعتمان، أحمد: الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً. سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 77، مايو1984، ص23 . وانظر كذلك عتمان، أحمد: مقدمة ترجمة الإلياذة ، ص 34. انظر كذلك يحيى، لطفي عبد الوهاب. عالم هوميروس. المرجع السابق، ص 23.

إسبرطة وزار ملكها مينيلاؤس، وهناك التقى هيليني ووقع كلٌّ منهما في حب الآخر، واتفقا معاً أن تذهب معه إلى طروادة في أثناء غياب زوجها، وجلبت هيليني معها كثيراً من الكنوز والنفائس إلى طروادة؛ تاركة خلفها زوجها وابنتها وأهلها ووطنها.كأنَّ هوميروس أغفل تلك الأسطورة كلها وتوقَّف عند حدث أهم من وجهة نظره هو غضبة أخيليوس التي بدأ بها "الإلياذة" وما استتبعها من أحداث إلى أن انتهت غضبته بقتل أمير طروادة وفارسها هيكتور وتدمير طروادة وخرابها.

هل كان هوميروس يعلم أنَّ مستمعه يعي تلك الأسطورة وتفاصيلها وهو يصف أحداث الحرب أم أنَّ الأسطورة جاءت بعد الأحداث وما قدَّمه هوميروس في ملحمتيه؟ أم أنَّ مبدعي "الإلياذة" قبل هوميروس هم من صنع الأسطورة وجعلوها جزءاً أساسياً في بناء الأحداث؟ بمعنى هل الأسطورة سابقة على الأحداث أم صنعها الناس – فيما بعد[9]– بخيالهم الفياض في مثل تلك المجتمعات القائمة حياتها على فلسفة الأشياء وتفسيرها وتعليلها باللجوء إلى الغيبيات وتضخيم الأشياء وفق ما يسمعونه ويروونه؟

إنَّ كلا الاحتمالين مرجَّح ومقبول في فهم هاتين الملحمتين ودراستهما. ذلك أنَّ القارئ لا تغيب عنه تلك الأساطير وهو يقرأ كلا الملحمتين. ولا شكَّ في أنَّ المستمع في عصر هوميروس كان يدرك ذلك ويعيه فيما يسمعه من مجريات أحداث هاتين الملحمتين. إذن هذه الأساطير كانت حاضرة وماثلة وبقوة لدى المنشد ، والمستمع، وفيما بعد لدى القارئ.

لقد استوقفت مسألة علاقة الشعر بالأسطورة الدكتور أحمد عتمان وناقشها، ورأى أنَّ صناعة الشعر عند الإغريق تعادل وتقابل أو تتمازج مع صناعة الأسطورة، وأنَّ الشاعر أساساً هو صانع أسطورة. وأنَّ الإغريق هكذا كانوا يفهمون وظيفة الأسطورة في بناء الشعر ولغة الشعر[10]. ويؤكِّد أهمية وجود الأسطورة في الشعر وبنائه بقول الشاعرة

[9] – انظر عتمان، أحمد: الشعر الإغريقي إنسانياً وعالمياً ، المرجع السابق ، ص 27.

[10] – انظر عتمان، أحمد : مقدمة ترجمة " الإلياذة "، المرجع السابق ، ص 13.

الغنائية الإغريقية كورينا للشاعر بنداروس (ولد 522 أو 518 ق.م.) حين طلبت منه أن يُضمِّن شعره الأسطورة، فجاءها بشعر مليءٍ بالأساطير فقالت له:" يا بني، الأسطورة في يدك مثل البذور في يد الزارع، هل يبذرها كلها دفعة واحدة أم ينثرها في أرجاء الحقل ؟ "[11].

ونتفق مع أحمد عتمان فيما ذهب إليه من أنَّ "الإلياذة" وكذلك "الأوديسية" لا يمكن فهمهما حقَّ الفهم من غير "أسطورة التفاحة" و"حكم الجمال بين الإلهات الثلاث هيرا وأثينة وأفروديتي. ألم تكن هيليني أجمل نساء العالم هي محور الحرب الطروادية؟ بل كيف يمكن فهم مسار الحرب الطروادية بين كرٍّ وفرٍّ، وهزيمة وانتصار، دون أن نفهم تدخل الآلهة الأوليمبوس لصالح هذا الطرف أو ذاك؟ الآلهة الأسطوريون والقوى الغيبية الخفية وكل ما وراء الطبيعة جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية في الإلياذة، حتى إنَّ أبطال الإلياذة تقريباً هم من أبناء الآلهة أو بنات الآلهة "[12]. ويضيف عتمان قائلاً:" إنَّ فهم دقائق الأسطورة الإغريقية يعدُّ شرطاً رئيسياً من شروط فهم الإلياذة."[13]. ولو وقفنا على أسطورة "التفاحة الذهبية" التي بنى عليها هوميروس ملحمتيه، والتي لم يشر إليها إلاَّ بعيداً جداً وفي آخر الملحمة[14]، لأمكننا اكتشاف الرؤية الفلسفية الحقيقية التي تدور في فلكها تلك الملحمتان. والعجيب أنَّ لكلِّ شخصية من شخصيات الملحمتين قصة وحكاية أسطورية، وبعضها يتعلق ببعض ويتداخل في غيرها. فنحن لا نفهم أسطورة التفاحة الذهبية دون فهم أسطورة باريس والنبوءة التي بسببها كان يعيش عند راع في الجبال، ولا نفهم أسطورة اختلاف الإلهات هيرا، أثينة، أفروديتي، دون المرور على أسطورة ثيتيس

[11] – نقلاً عن عتمان، أحمد : مقدمة ترجمة " الإلياذة "، المرجع السابق ، ص 13.

[12] – عتمان، أحمد: مقدمة ترجمة " الإلياذة "، المرجع السابق ، ص 14.

[13] – المرجع السابق .

[14] – انظر هوميروس : " الإلياذة " ، الكتاب الرابع والعشرون ، ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك ، ص769 وما بعدها ، وانظر كذلك هوميروس : الإلياذة . ترجمة: أمين سلامة ، دار الفكر العربي ، ط2 ، 1981 ، ص491. وانظر باول، باري بي: هوميروس ، المرجع السابق ، ص 196 وما بعدها .

وولدها أخيليوس، ولا نفهم أسطورة أخيليوس والنبوءة بموته دون معرفة قصة أمه ثيتيس وزواجها، وإنجابها أخيليوس وكيف عمَّدته في ماء النهر المقدَّس لحمايته، ولا نفهم كيف جيء بأخيليوس للمشاركة بالحرب من دون الوقوف على أسطورة أوديسيوس.كما أننا لا نفهم أسطورة أوديسيوس من غير معرفة أسطورة هيليني ومن تقدَّم إليها من الخُطَّاب، ولا نعرف أسطورة إيفجينيا دون معرفة النبوءة المتعلقة بتقديم قربان للآلهة ليُسمح للجيوش الإغريقية بالتقدم باتجاه طروادة، ولا ندرك أبعاد تضحية بروتيسيلاؤس ما لم نعرف الأسباب التي أدت إلى ذلك، ولا موت زوجته عليه حين افتدى الإغريقَ في بداية حرب طروادة. وهكذا دواليك.كل أسطورة متداخلة في الأخرى ومتعلقة بها بسبب. وقد أصبحت هذه الأساطير مع مرور الزمن الأساس لفهم أبعاد هاتين الملحمتين. أو الجزء الأساسي في بناء هاتين الملحمتين، ولا يمكن فهمهما دون تلك الأساطير. ثمَّ والأبعد من ذلك لا يمكننا فهم وجود الآلهة(زيوس ، هيرا ، أثينة ، أفروديتي ، أريس ، إيرس ، أبوللون) ودورها في مجريات الأحداث التي تضمنتها الملحمتان.

إذن الأسطورة جزء أساسي في بناء ملحمتي هوميروس، وإن كان بعضها غير واضح وخاف في أثناء سرد الوقائع والأحداث وخاصة في "الإلياذة". وهذا يفسر ما أشارت إليه الشاعرة كورينا. وهنا تكمن مهارة الشاعر الفنان المبدع في نثر أساطيره في كلِّ عمله الملحمي بحيث يبدو عمله كلاً واحداً من أوله إلى آخره متجانساً ومتآلفاً. ويحسُّ المستمع، والقارئ، أنَّ هذه الأساطير الخفية تجري منسابة في كلِّ حدث من أحداث الملحمة ووقائعها. أمَّا في "الأوديسية" فالجو العام والأحداث فيها قائمة على الخيال والأسطورة من بدايتها إلى نهايتها مع ما في تلك الأساطير من أهمية ، وما تحمله من رموز ودلالات بعيدة عمد إليها هوميروس عن قصد ووعي.

وعلى طريقة المبدعين الماهرين في سرد الأحداث ووقائعها فعل هوميروس. إنَّه لم يبدأ "الإلياذة" من بداية أحداث تلك الملحمة وما يعرفه الناس أسطورياً عن الأسباب التي أدت إلى تلك الحرب الدامية. ذلك أنَّ تلك الأمور أصبحت مع مرور الزمن جزءاً من تراثهم

الفكري والثقافي والحياتي عن تلك الحكايات والوقائع. لقد بدأ هوميروس قصة "الإلياذة" من نقطة ارتآها مهمة في سرد الأحداث وهي غضبة أخيليوس. أي من نقطة حاسمة بالنسبة إلى مجريات الأحداث وما ستنتهي إليه أخيراً. فالمستمع على معرفة بكلِّ ما كان من أمر باريس وهيليني، وما سبق ذلك من حكاية التفاحة الذهبية، واختلاف الإلهات الثلاث هيرا وأثينة وأفروديتي وتحكيم باريس في أمر التفاحة، وأنَّ باريس حكم لأفروديتي بأنها الأجمل وفضَّلها على الإلهتين الأخريين، وهذا ما أدى إلى نقمة هيرا وأثينة عليه وغضبهما والثأر منه ومن طروادة ومن فيها. والمستمع يعرف أيضاً حكاية أخيليوس والنبوءة القائلة بموته على أسوار طروادة بعد أن يقتل أمير طروادة هيكتور، ويعلم كذلك كيف جاء به أوديسيوس عن طريق الحيلة للمشاركة في حرب طروادة، ويعرف المستمع قبل ذلك حكاية اختيار هيليني مينيلاؤس زوجاً لها، كما يعرف أيضاً سبب رفض أوديسيوس، بدايةً، المشاركة في حرب طروادة، كما يعرف كذلك حكاية إيفيجينيا وتضحيتها ، وسبب موت بروتيسيلاؤس وزوجته من بعده. كل ذلك يعلمه المستمع وحاضر في وعيه وذاكرته. أمَّا الذي يجهله فهو ما جرى في ساحة القتال، والأسباب التي أدت إلى غضب أخيليوس واعتزاله المعركة في السنة العاشرة ثم الأسباب التي دعته ثانية إلى المشارك في المعركة. هذا يجهله المستمع أو على الأقل يحب أن يسمعه مراراً وتكراراً لما فيه من إثارة أو ليتعلم ويستفيد مما حدث. لهذا استوقف هوميروس هذا الحدث الكبير وابتدأ به ملحمته؛ تاركاً كلَّ ما حدث قبل الحرب من حكايات وأحداث وما حصل في السنوات التسع للحرب وحصار طروادة إلى مستمعه وقارئه فيما بعد. وتركنا نتساءل: كيف بدأ الإغريق حربهم على طروادة ، وماذا حصل في السنوات التسع من أحداث؟ كيف كانت الحرب بين الطرفين؟ حقيقة يجهل المرء كلَّ ما حدث في تلك السنوات التسع. هذه الثغرة في "الإلياذة" مجهولة، ومغيبة. وتدعو إلى التساؤل المستمر: ماذا حدث في هذه السنوات التسع. ويستغرب المرء مرة ثانية حين يقرأ "الإلياذة" أنَّ كلا الطرفين المتنازعين (الإغريق والطرواد) فكَّرا في السنة التي تتحدث عنها "الإلياذة"

وهي السنة العاشرة واتفقا على أن تكون بين طرفي النزاع الرئيسيين مينيلاؤس وباريس مبارزة ليحقنوا الدماء التي استمرت تسع سنوات. والفائز في تلك المبارزة ستكون هيليني من نصيبه، وبذلك تنتهي الحرب بين الطرفين. ونقرأ كذلك أنَّ وفداً من الإغريق جاء للتفاوض مع الطرواديين لاستعادة هيليني، وأنَّ الطرواديين لم يقبلوا بذلك. وهذا الأمر ليس محدداً بتاريخ، ولا نعرف متى حدث.

إذن المبارزة كانت في السنة العاشرة. ومن المفترض أن تكون في بداية الحرب. وليس بعد كلِّ هذه السنوات الطويلة.

ثم ما يلفت الانتباه أمران في "الإلياذة"؛ الأول من خارج "الإلياذة" لكنه متعلق بها، وهو أسطورة زواج ثيتيس وإنجاب أخيليوس. وهذا الزواج حسب الأسطورة كان بحضور الآلهات جميعاً عدا إلهة الخصام والنزاع إيرس التي لم تُدعَ إلى الحفل، لكنها جاءت وأحضرت معها التفاحة الذهبية التي نَقَشَتْ عليها: للأجمل، أو تُمنح للأجمل. وأنَّ الإلهات الثلاث هيرا وأثينة وأفروديتي اختلفن في ذلك. وذهبن ليحتكمن في أمرهن، والتقين باريس الذي منح التفاحة لأفروديتي على أنها الأجمل بينهن.

من هذه القصة نستنتج التناقض في الأسطورة التي بنيت عليها "الإلياذة". فمادام باريس هو الذي حكَّمته الإلهات الثلاث. فهذا يعني أنه يكبر أخيليوس على أقل تقدير بعشرين سنة. لأنَّ باريس كان في ذلك الوقت شاباً يعيش عند الراعي الذي رباه عنده. وأخيليوس لم يولد بعد. ففي "الإلياذة" لا نلمح من ذلك شيئاً وإنَّما يبدو لنا أنَّ أخيليوس أكبر سنَّاً من باريس. و"الإلياذة" تقول أيضاً إنَّ أخيليوس متزوج وله ولد اسمه نيوبتوليموس[15].

هذا أمر. أمَّا الأمر الثاني فإنَّه يتعلق بهيليني. فقد أتى بها باريس إلى طروادة وعاشت معه زوجة. وقد كان لها ابنة تركتها في إسبرطة حين جاءت مع باريس. والسؤال الذي

[15] – انظر هوميروس : الإلياذة . ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك ، ص 652 ، وكذلك انظر هامش الصفحة 799 .

يُطرح هنا: ألم تتجب من باريس خلال هذه السنوات التسع، أو العشرين كما سنرى بعد قليل؟ ألم تحنَّ إلى ابنتها التي تركتها صغيرة [16]؟

ثم التناقض الأكبر نلاحظه في نهاية "الإلياذة" حين يُقتل هيكتور وتقام مراسم دفنه بين أهله في طروادة. ويتحدث أهله عن مناقبه. وحين يأتي دور هيليني تقول: " أي هيكتور، يا أعز على قلبي من كل أخوة زوجي، حقاً، إنَّ زوجي ألكسندروس (باريس)، شبيه الآلهة، الذي أحضرني إلى طروادة، وليتني كنت قد فنيت قبل ذلك ، فقد أمضيت الآن عشرين عاماً منذ ذلك الحين الذي رحلت فيه من هناك وغادرت وطني. ولم أسمع منك كلمة مشينة أو مهينة قط. وإذا ما لامني شخص آخر داخل القصر، سواء كان من أخوة زوجي أو أخواته، أو من زوجات إخوته بملابسهن الجميلة، أو أمك – أمَّا أبوك فهو مثل والدي رقيق الحال معي دائماً – فإنَّك بحديثك معه، وكذلك بأسلوبك الرقيق، وكلماتك العذبة تجعله يتراجع ويهدأ. ولهذا فأنا أبكيك كما أبكي على نفسي، سيئة الحظ، بقلب حزين. فلم يعد لي بعد ذلك في طروادة الفسيحة شخص آخر لطيف أو عزيز، لأنَّهم جميعاً يفزعون مني"[17].

كلام هيليني هنا يؤكِّد أنها موجودة في طروادة مع باريس منذ عشرين سنة. أليس في كلام هوميروس تناقض حين يدَّعي أنَّ الحرب دخلت في عامها العاشر حين غضب أخيليوس؟ نعم هذا تناقض واضح. والسؤال الذي يمكن طرحه هنا هو: أين السنوات العشر التي سبقت بداية أحداث "الإلياذة"؟ وماذا حدث فيها؟ "الإلياذة" لا تجيب عن ذلك. وإنَّما تخبرنا أنَّ تسع سنوات فقط مضت والإغريق يحاصرون طروادة. ربَّما يمكننا الإجابة عن تلك السنوات العشرين حين نلجأ إلى الأسطورة من بدايتها ففيها من دون شكٍّ تكمن الإجابة، لكن هوميروس غيَّبها عن المستمع والقارئ. تلك الأسطورة التي

[16] – تذكر الأسطورة أنَّ لهيليني ابنة صغيرة اسمها " هرميون " تركتها في إسبرطة حين جاءت مع باريس إلى طروادة . انظر نيهاردت، أ.أ.: الملحمة الإغريقية القديمة. ترجمة: الدكتور هاشم حمادي ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ط1، 1994، ص 60.

[17] – هوميروس : الإلياذة . ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك ، ص 799.

تتحدث عن استعداد الإغريق للثأر من باريس والطرواديين والدفاع عن شرفهم وتخليص هيليني وإعادتها إلى زوجها مينيلاؤس. فالأسطورة تقول: إنَّ الإغريق بعد معرفتهم أنَّ شرفهم قد أُهين، وأنَّ زوجة أحد ملوكهم قد خانت زوجها وفرَّت مع عشيقها باريس الذي لم يحترم أصول الضيافة وخطف امرأة سيد من ساداتهم، هبُّوا للانتقام، وأخذوا يجمعون الجيوش من كلِّ القبائل والممالك اليونانية، ويستعدون للحرب. وقد استمر ذلك وقتاً طويلاً. وكان أن استنجدوا بأوديسيوس الداهية وصاحب الحيلة، الذي كان من الرافضين الاشتراك في تلك الحرب التي سببتها امرأة خائنة لا تستحق أن تُنصر ويدافع عنها. لكنه أُجبر على المجيء والاشتراك في تلك الحرب؛ تاركاً وطنه إيثاكا وزوجته بينيلوبي وابنه تليماخوس وراءه. وحسب نبوءة العرافين فإنَّ طروادة لا تفتح إلاَّ على يد أخيليوس. وأين أخيليوس؟ إنَّه في مكان مجهول، كانت أمه قد خبأته فيه خوفاً من نبوءة الموت على أسوار طروادة. ويتكفَّل أوديسيوس بمهمة البحث عنه وإقناعه بالمشاركة في الحرب والدفاع عن شرف بلاده وقومه. ويحضر أخيليوس. لكن الآلهة لم تأذن بعد لهم بالتوجه إلى طروادة؛ إذ كان عليهم أن يُقدِّموا قرباناً حتى يُسمح لهم بالانطلاق إلى طروادة. وما هو القربان؟ إنَّه فتاة، ومن هي الفتاة؟ إنَّها إيفيجينيا ابنة أجاممنون. وهل سيقبل ملك ملوك الإغريق وقائدهم في الحملة على طروادة أن يُقدِّم ابنته قرباناً للآلهة لتسير الجيوش؟ وهنا نعايش صراع أجاممنون وحقده على الآلهة ، ولماذا اختارت الآلهة ابنته، وهي أعزُّ ما لديه والأحب إلى قلبه. لم يقبل ما أرادته الآلهة؛ بل ابنته إيفيجينيا هي التي قبلت وافتدت قومها. وقد كافأتها الآلهة لأنها قبلت ما أمرتها به، وافتدتها بظبي وصُعد بجسدها إلى السماء[18]. وبذلك سُمح للجيوش اليونانية بالتوجه إلى طروادة. لكن نبوءة أخرى جاءتهم من الآلهة أنَّ أول رجل تطأ قدماه أرض طروادة سيكون مصيره الموت

[18] – تذكر الأسطورة أن الذي افتدى إيفيجينا هي الربة أرتيميس (ديانا) التي هبطت من جبال الأولمب وأنقذتها ، ورفعتها إلى السماء، ثم أرسلتها لتكون راهبة معبدها العظيم في مملكة تاوريس . انظر هوميروس : الإلياذة . ترجمة: دريني خشبة ، دار العودة، بيروت 1985، ص 62. وانظر كذلك نيهاردت، أ.أ. : الملحمة الإغريقية القديمة . المرجع السابق ، ص 72.

بسهام الطرواديين. وهنا يتهيب الفرسان والمقاتلون الإغريق من النزول إلى شواطئ الطرواديين. إلى أن يتجرأ بروتيسيلاؤس من النزول إلى الشاطئ ويموت فعلاً بسهام الطرواديين. فكان بجرأته تلك مُنقِذاً للموقف وأشجع أبطال الإغريق جميعهم. وحين تعلم زوجته بموته تتضرع إلى الآلهة أن تعيد له الحياة لتودعه. ويُلبَّى تضرعها وطلبها فتراه وتودعه، لكنها تموت بعد ذلك.

هذا التأخير في السير إلى طروادة والعقبات التي صادفت الوصول إلى طروادة استمر وقتاً لا نعلم مدته. ناهيك عن أنَّ بعض الأساطير الإغريقية تحاول تفسير طول مدة الحرب إلى عشرين سنة بطريقة تكاد تكون ساذجة لا تستند إلى وقائع ملموسة وأكيدة. ففي معرض حديثه على كلام هيليني أنها موجودة في طروادة منذ عشرين سنة يعلق الدكتور أحمد عتمان في الحاشية قائلاً:"هذه الإشارة الوحيدة في أشعار هوميروس للرواية الأسطورية المدهشة وفحواها أنَّ الإغريق بعد خطف هيليني قاموا بحملة فاشلة حيث رست سفنهم في ميسيا بدلاً من طروادة عن طريق الخطأ فعادوا إلى بلادهم. وبعد عشر سنوات حشدوا أساطيلهم وقاموا بالحملة التي تتحدث عنها الإلياذة. وهذه الرواية الأسطورية الغريبة غير المعروفة، ولكنها تتفق وما جاء في الإلياذة الكتاب التاسع عشر بيت 327 من أنَّ أخيليوس كان له ابن شاب يدعى نيوبتوليموس. وهذه التقاسيم الزمنية المتقابلة في الأسطورة تفتح مجال الشك في علاقتها بالحقائق. فالاستعداد للحرب أخذ تسع سنوات ووقوع الهجوم في العاشرة. وحصار طروادة تسع سنوات. وأُحرقت في العاشرة، وبعدها تاه أوديسيوس في طريق العودة إلى وطنه إيثاكا تسع سنوات ووصل في السنة العاشرة "[19]. وإذا كانت مدة الاستعداد للحرب وحصار طروادة استمرت عشرين سنة، وضياع أوديسيوس في البحر في أثناء عودته إلى وطنه استمر كذلك عشر

[19] – هوميروس : الإلياذة . ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك ، الهامش ، ص 799 . انظر كذلك ماجواير، لوري: هيلين طروادة من هوميروس إلى هوليوود. ترجمة: محمد حامد درويش، مراجعة: نيڤين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي سي آي سي ، 2018، ص 30 ، .

سنوات، فهذا يعني أنَّه غاب عن وطنه منذ خروجه للحرب وعودته ثلاثين سنة وليس عشرين كما ذُكر ذلك في "الإلياذة" و"الأوديسية"، وأنَّ ابنه تليماخوس أصبح عمره أكثر من ثلاثين سنة مادام أوديسيوس قد غادر بلاده وابنه طفل صغير.

هذا التداخل والتخبط بين الواقع والأسطورة واضح وملموس في "الإلياذة" و"الأوديسية". وربما مردُّ ذلك يعود إلى تناقل هاتين الملحمتين شفاهاً عبر تلك القرون الطويلة. وربما طول كلٍّ من الملحمتين كان السبب في ذلك التداخل والتناقض. وربَّما السبب في ذلك أيضاً تداخل الأسطورة بالواقع، أو الواقع بالأسطورة. على أن ما يعنينا هنا هو أن هاتين الملحمتين ليستا واقعيتين كلياً، كما أنهما ليستا أسطوريتين كلياً. وسوف نتوقف عند هذه القضية المهمة ونناقشها في معرض حديثنا عن أبعاد الرؤية الجمالية والفلسفية والإنسانية والأخلاقية والدينية في ملحمتي هوميروس.

ومن هنا يمكن القول إنَّ الحرب الطروادية استمرت فترة طويلة من الزمن، وليس عشر سنوات كما يشير هوميروس، وأنَّ هيليني بقيت موجودة في طروادة عشرين سنة. ولا نعلم متى جُمعت الجيوش من تلك القبائل الإغريقية المختلفة. هل بعد الفترة اللاحقة لخطف هيليني مباشرة، أم بعد عشر سنوات؟ هوميروس لا يجيب عن ذلك مطلقاً. وإنَّما ما نعلمه منه أنَّ الحرب استمرت عشر سنوات فقط.

ثانياً : الأبعاد الجمالية والفلسفية والإنسانية والأخلاقية والدينية في ملحمتي هوميروس

اتكأ هوميروس إذن في ملحمتيه على الأساطير وبثَّها في جوانب كثيرة من ملحمتيه ولم يلجأ إلى الأسلوب المباشر في مخاطبة مستمعه وبذلك خلق توازناً فنياً رائعاً بين وظيفة الشعر ووظيفة الأسطورة وفي إيصال رؤيته الفلسفية وأبعادها جمالياً وإنسانياً وأخلاقياً ودينياً. وكذلك كان حاله مع الآلهة التي استعان بها؛ فقد كان لها دلالات كثيرة على المستويين الإنساني والروحي. وكما أسلفنا، فإنَّ هوميروس لم يبدأ ملحمته "الإلياذة" كما وردت في الأسطورة المزعومة من بداياتها وإنَّما من نقطة ارتآها أصلح ما تكون فنياً

للحديث عن مجريات الأحداث ووضع المستمع في قلب الحدث مباشرة، وتركه يجول بخياله بين الماضي الأسطوري وما آلت إليه الأمور من أحداث وما جرَّته تلك الأسطورة من ويلات على الطرواديين والإغريق معاً. وكذلك فعل بقارئه ، فجعله يُحلِّق بخياله ليعيش أو يستحضر كلَّ ما جرى وحصل من أحداث على أسوار طروادة. هناك طروادة، درة المدن في ذلك الزمن، تلك المدينة الجميلة الرائعة، التي بذل أهلها طوال سنين طويلة كلَّ ما لديهم من مال وجهد من أجل بنائها والحفاظ عليه وصونها والدفاع عنها، أحبوها، وعاشوا فيها آمنين سعيدين، وباركتها الآلهة وأحبتها[20]، كما كان سكان البلدان الأخرى، ومنهم اليونانيون، ينظرون إليها نظرة احترام وتبجيل. وعلى الجانب الآخر هناك اليونانيون الذين يحاصرون طروادة منذ عشر سنوات. هؤلاء الذين جاؤوا من معظم المدن والبلدات اليونانية تلبية لدعوة أجاممنون وأخيه مينيلاؤس لاسترجاع هيليني من باريس إلى وطنها وزوجها. ويجعلنا هوميروس نعايش أحوال المُحاصَر والمُحاصِر؛ فالطرواديون، كبيرهم وصغيرهم، في ترقب وخوف واستعداد دائم لصدِّ هجمات اليونانيين، وهنا اليونانيون في انتظار طويل وبعد عن الأوطان والأحباب. ولم تكن معاناتهم أقل من معاناة الطرواديين؛ فهنا الضيق والتذمر وفقد الأحباب موتاً أو بعداً، وهنا الحنين والشوق إلى الأهل والأحباب والأوطان التي فارقوا، وهنا التساؤلات المحيِّرة الدائمة: متى تنتهي هذه الحرب، ومتى نعود إلى أوطاننا وأهلنا، وما علاقتنا نحن بامرأة فرَّت من بيت زوجها مع من تحب، أنموت من أجل امرأة لا نعرفها ولا تربطنا بها صلة، وهل أساء إلينا الطرواديون حتى نهاجمهم ونستولي على بلادهم [21]؟

وكذلك الحال في "الأوديسية" يجعل هوميروس مستمعه وقارئه يعايش معاناة البطل أوديسيوس ورفاقه الذين نجوا من حرب طروادة وهم في طريق عودتهم إلى بلادهم، وما

[20] – إشارة إلى هذه المباركة أن أبوللون ساعد في بناء طروادة ، وكان يحميها من الأعداء ، وكذلك كان زيوس رب الآلهة معجب بها . وفي الإلياذة إشارات كثيرة إلى أن أبوللون كان يناصر أهلها ويحمي أبطالها ويدافع عن طروادة ويرمي الأعداء بسهامه .

[21] – يرد ذلك على لسان أخيليوس . وسنقف عليه بعد قليل .

لاقوه في ذلك من مشاق كثيرة، وموت الجميع، وبقاء أوديسيوس الذي تمكن أخيراً من العودة إلى وطنه إيثاكا ولقاء زوجته وابنه وأبيه والقضاء على من كان يريد الزواج من زوجته بيلنوبي والاستيلاء على أملاكه.

فمنذ البداية يضعنا هوميروس في صلب الموضوع الذي يريد التحدث عنه؛ ففي "الإلياذة" يحدد للمستمع، القارئ، أنه سيتحدث عن غضبة أخيليوس. وفي "الأوديسية" كذلك يبين أنه سيتحدَّث عن البطل أوديسيوس وطريق عودته إلى وطنه.

والآن، كيف تجلَّت رؤية هوميروس وفلسفته في ملحمتيه بأبعادها الفنية والجمالية والأخلاقية والإنسانية والدينية؟

1- الأبعاد الجمالية:

بعيداً عن النقاشات والنظريات وتضارب الآراء المختلفة التي قيلت حول هاتين الملحمتين ابتداءً من القرن السادس ق.م. وما تلاه من عصور، وما قيل في نسبتهما إلى هوميروس، أو إلى غيره، والزمن الذي جُمعتا فيه[22]، أو الاختلاف في القول إنَّ هوميروس نظم الملحمة الأولى "الإلياذة" في سني شبابه الأولى، والثانية "الأوديسية" في أواخر حياته[23]، وأنَّ موضوعي الملحمتين مختلفان، أو واحداً[24]، وأنَّ هناك بعضاً من الأناشيد أو المقاطع قد أُضيفت إلى الملحمتين، وخاصة إلى "الإلياذة"، فإنَّ المرء حين يقرأ الملحمتين مجتمعتين، وهو غير غافل عن سير الأحداث من أولها إلى آخرها، وغير

---

[22] – انظر في هذا البستاني، سليمان: مقدمة ترجمة"الإلياذة" ، المرجع السابق، ص33 وما بعدها. وانظر كذلك الأسد، ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار الجيل، بيروت ، ط 8، 1996، الفصل الأول من الباب الرابع الذي حمل العنوان " المشكلة الهومرية " ص287-320.

[23]– انظر عثمان ، أحمد : مقدمة ترجمة "الإلياذة". المرجع السابق، ص23. ويرجِّح محمد مندور أن تكون الملحمتان قد كتبتا في وقت واحد. انظر مندور، محمد: الأدب وفنونه. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة- القاهرة ، د.ت. ص50. وانظر كذلك خفاجة، محمد صقر: تاريخ الأدب اليوناني. (سلسلة الألف كتاب61)، مكتبة النهضة المصرية 1956، ص43.

[24] – أشار أمين سلامة من خلال تحليل الملحمتين؛ الإلياذة والأوديسية أنَّ " وحدة الموضوع واحدة في المنظومتين" . ولم يُعقِّب على ذلك، ولم يبيِّن ما المقصود بوحدة الموضوع. هل قصد أن الموضوع في كلٍّ ملحمة مستقل بنفسه؟ أم أنَّ الموضوع واحد في الملحمتين. انظر سلامة، أمين: مقدمة ترجمة "أوديسة هوميروس". (الترجمة الكاملة عن الأصل اليوناني المقارن). ترجمة: أمين سلامة، دار الأدباء، الجزء الأول، (القاهرة) 1960، ص51.

غافل عن الأسطورة التي بُنيت عليها الملحمتان، فإنه واجد فيهما وحدة عضوية في الموضوع الأساسي، ويتمثل ذلك في رحلة أوديسيوس من وطنه إيثاكا إلى طروادة وعودته أخيراً إلى وطنه. وما جرى ما بين بداية الرحلة وما سبقها من أساطير وحكايات، وما رافق ذلك من أحداث على أرض طروادة، وأسوارها، من حروب وقتال، وتدمير مدينة طروادة أخيراً، ونجاة من نجا في هذه الحملة وعودة المحاربين إلى أوطانهم، ومنهم عودة أوديسيوس. كلُّ ذلك ما هو إلاَّ لوحات وموضوعات جزئية من لوحة كاملة هي رحلة أوديسيوس وعودته، أو قصة أوديسيوس. وإن كان أرسطو يرى أن كلا الملحمتين تُشكل وحدة موضوعية بنفسها، أي أن غضبة أخيليوس هي التي تشكل الموضوع الذي ركز هوميروس عليه في "الإلياذة"، وأن موضوع عودة أوديسيوس إلى وطنه يشكل موضوع "الأوديسية"، فإنني أرى أن كلا الملحمتين تشكلان وحدة موضوعية واحدة، هي "قصة أوديسيوس، رحلته وعودته"، وأنَّ الإلياذة" كلها هي جزء من هذا الكل، وكذلك "الأوديسية" هي جزء من هذا الكل، وأن ما فيهما من موضوعات متنوعة ومختلفة ومتشعبة هي بنفسها موضوعات مستقلة في إطار الموضوع الكلي العام. هي أجزاء بديعة ورائعة ومستقلة بنفسها، لكنها بمجموعها تشكل اللوحة الكبيرة الأكثر رحابة لقصة أوديسيوس. ففي الأسطورة كما في الملحمتين لا تغيب عنا شخصية أوديسيوس، فأوديسيوس حاضر دائماً، وهو المحرك الظاهر والخفي لأحداث الملحمتين، ألم تخبرنا الأسطورة أن أوديسيوس كان واحداً من بين الراغبين في الزواج من هيليني، وأنه هو الذي أشار على والد هيليني أن يترك الخيار لها ، وأن يُقسِم كل من جاء راغباً بها أن يحمي هيليني ويدافع عنها؟ ألم تخبرنا الأسطورة أن جيوش اليونانيين لا يمكن أن تبحر دون مساعدة أوديسيوس، ألم تخبرنا الأسطورة أن أوديسيوس بحكمته ودهائه استطاع إقناع أخيليوس بالمشاركة في الحرب، وأنه كان أول من وطأت قدماه أرض طروادة؟ وفي "الإلياذة" نفسها ألم يكن أوديسيوس هو الشخصية الرئيسية التي كان لها الدور المهم في سير الأحداث، ومناقشة أمور الحرب، وإبداء الآراء الحاسمة في البقاء في الحرب أو التخلي

عنها؟ ألم يرسله أجاممنون مع وفد إلى أخيليوس من أجل الصلح والمشاركة في الحرب ثانية؟ ألم يكن من أوائل من نصب كميناً للطرواديين؟ ألم يكن هو صاحب فكرة حصان طروادة؟ ألم يشهد موت باتروكلوس، وأخيل، وهيكتور، وغيرهم من الأبطال؟ نعم أوديسيوس كان حاضراً وبقوة في الأسطورة وفي "الإلياذة"، كما كان هو بطل "الأوديسية" ومحرك الأحداث فيها من أولها إلى آخرها، ومن خلال شخصيته في "الأوديسية" عرفنا وتتبعنا أخبار من شاركوا في حرب طروادة، ومن عاد منهم ، ومن مات.

ثمَّ ألم يلاحظ القارئ، وربما من قبله السامع، أن نهاية قصة "الإلياذة" لم تكن نهاية مكتملة؟ ألم يتساءل القارئ: ما مصير طروادة بعد موت هيكتور، وماذا جرى من أحداث بعد ذلك، وما مصير أخيليوس وكيف مات، وعلى يد من كانت نهايته، ما مصير هيليني، ومصير أهل طروادة ونسائها، ومن بقي من كلا الطرفين، وما حال باريس، وحال من بقي من اليونانيين، من عاد منهم، وغير ذلك من الأسئلة التي بقيت الإجابات عنها معلقة في ذهن السامع والقارئ معاً؟ إذن نهاية "الإلياذة" بقيت مفتوحة، وتلك الأسئلة تحتاج إلى إجابات. وهذا ما فعله هوميروس في "الأوديسية" حين أجاب عن تلك الأسئلة العالقة في ذهن السامع والقارئ بحيث جاءت "الأوديسية" تتمة لما في "الإلياذة"، وبهذا اكتملت قصة أوديسيوس منذ خروجه من إيثاكا وانتهاء بعودته.

هكذا تجلَّت نظرة هوميروس الكلية الجمالية وفلسفته في إبداع هاتين الملحمتين. قدَّم لوحة كبيرة وغنية وعامرة بالموضوعات الجانبية البديعة التي لا تكتمل اللوحة الكبيرة إلاَّ بها.

هذه النظرة الجمالية الكلية لم تقتصر فقط على وحدة الموضوع، وإنما نلمسها ونشاهدها في أرجاء الملحمتين، في ذلك الوصف الرائع لكل ما يحدثنا عنه هوميروس من أماكن، وشخصيات ، وصف نابع من رؤية فلسفية، ترى في كل شيء جمالاً يستحق النظر والتأمل، بحيث يجعلنا نحس كل شيء أمامنا يموج بالحياة والحيوية والحركة، ونعايشه كما لو أننا نعرفه، فنحبه ويبقى ماثلاً في خيالنا دائماً ونحن نسمع ونقرأ. وعلى الرغم من

أن هوميروس لا يغوص عميقاً في النفس البشرية فيما يصف من شخصيات، فإنه يجعلنا بما يُقدِّمه من وصف بديع ونادر لهذه الشخصيات نحس بها، وندخل إلى أعماقها، ونعي كيف تفكر وما يعتمل في صدورها. فإذا وصف النهر أبدع، وإذا وصف الجبال حلق، وإذا وصف البحر سحر، وإذا وصف سلاح المقاتلين أجاد وأتقن، وإذا وصف الحيوان تراه قريباً منك، وإذا وصف الآلهة جعلك تبحر بخيالك بعيداً، وإذا وصف رجلاً أو امرأة أبهرك. وهذه الأوصاف لا تقتصر على طرف دون طرف، فالصديق والعدو يتساويان في كل هذا، بل ليس هناك عدو، هناك إنسان، ومن حق هذا الإنسان أن يُقدَّمَ كما يجب أن يكون. ولقد لفت صنيعُ هوميروس أرسطو في ملحمتيه فأُعجب به أيما إعجاب، وجعله الأول في كل شيء؛ صنعةً، وفطرةً، وإبداعاً، ووصفاً، وأخلاقاً، وسمواً، وجمالاً، وذكره في كتابه "فن الشعر" أكثر من خمس عشرة مرة، وفي كل مرة يشيد به؛ فهوميروس كما يقول أرسطو "يصور الناس خيراً مما هم فيه"[25]، و"يتقمص شخصاً آخر "[26]، و" يحاكي أشخاصاً فضلاء "[27].

إذن كان هوميروس ينشد الجمال والسمو في كل ما وصفه وأتى على ذكره. وقد استوقف إبداع هوميروس في الوصف وغيره كثيراً من الباحثين والدارسين ومنهم أحمد عتمان الذي يقول:"وتتجلى عظمة هوميروس في أن وصفه للعالم الذي تجري فيه أحداث ملحمتيه يلصق بالأذهان وكأنه ذكرى عنيدة لمكان حقيقي عشنا فيه ردحاً من الزمان. مكان لا تفارقنا ذكراه وتتطبع في حواسنا رائحته وأصواته وألوانه المميزة. ولكل مكان عند هوميروس نكهته الخاصة التي لا يمكن أن نخطئها قط فهي مميزة عن غيرها هذا. هو عالم هوميروس الخالد سواء أكان ما يصف هو مشهد قتال عنيف أو موت مفاجئ أو

[25] – أرسطو : كتاب أرسطوطاليس في الشعر. نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي . حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية الدكتور شكري محمد عياد . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1993 ، ص32 .

[26] – المصدر السابق ، ص 34.

[27] – المصدر السابق ، ص 34.

حتى مناظر طبيعية خلابة "[28]. ففي وصف السلاح الجديد الذي يصنعه هيفايستوس، إله النار والحدادة، لأخيليوس يبدع هوميروس أيما إبداع في ذلك الوصف، حيث تتجلَّى فيه رؤيته الكونية:"وصنع – أولاً – ترساً عظيماً متيناً ، زينه بمهارة من جميع النواحي ، وثبَّت حوله إطاراً براقاً – من ثلاث طبقات – ووصله بحمائل من الفضة ، فكانت طيات الترس خمساً ، نقش عليها رسوماً غريبة ، بمهارة فائقة: نقش عليها الأرض ، والسماء، والبحر، والشمس التي لا تكلُّ، والقمر كاملاً في استدراته، وجميع الكواكب التي تتوج السماء .. البلياديس، والهياديس، وأريون العتيد، والدب الذي يسميه البشر"المركبة" والذي يدور باستمرار في مكانه متطلعاً إلى أوريون، والوحيد الذي ليس مكان وسط حمامات السماء"[29].

2- الأبعاد الإنسانية والأخلاقية:

تطرح ملحمتا "الإلياذة" و"الأدويسية"، ومن خلفها الأسطورة، قضايا كثيرة تتعلق بموقف الإنسان في الحياة وفلسفته ومبادئه. وكلها تستحق القراءة والتفكير والتأمل والمناقشة. وسأتوقف عند أربع قضايا تتجلَّى في معظمها هذه الأبعاد.

أ – أسطورة التفاحة الذهبية ودلالاتها الرمزية :

قلنا إنَّ هوميروس لم يأت على ذكر هذه الأسطورة إلاَّ في مقطع وحيد ورد في الكتاب الرابع والعشرين من "الإلياذة" وفي معرض حديثه عن جثة هيكتور التي أساء إليها أخيليوس، ورغبة الآلهة أن تُسرق على يد هرمس احتراماً لها وحفاظاً عليها:"الأمر الذي نال استحسان كل الآلهة الآخرين، فيما عدا الإلهة هيرا، والإله بوسيدون، وأيضاً العذراء ذات العينين الزرقاوين (أثينة)؛ فلم تتغير كراهيتهم، منذ البداية، لمدينة إليوس المقدسة،

[28] – عتمان، أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً عالمياً . المرجع السابق ، ص 34..

[29] – هوميروس : الإلياذة . ترجمة: أمين سلامة ، دار الفكر العربي ، ط2، 1981 ، ص 419. وانظر هذا المقطع أيضاً في ترجمة أحمد عتمان وفريقه المشارك : الإلياذة . المصدر السابق ، ص 631ومابعدها . وقد اقتصرنا في التمثيل هنا بالمقطع الأول فقط نظراً لطول هذا الوصف .

وأيضاً لبرياموس وشعبه، بسبب كراهيتهم لابنه ألكسندروس، الذي حقَّر الإلهات عندما وصلن إلى حظيرته، ورجَّح كفة تلك التي غذَّت الرغبة المحمومة لديه ."[30]

وعلى الرغم من تغييب هوميروس الحديث عن هذه الأسطورة، الذي لا ندري له سبباً، وعدم تقديم التفاصيل فيها، فإن هذه الأسطورة بقيت حاضرة ماثلة بنتائجها وما جرى بعدها من أحداث. ففي هذه الأسطورة تبرز قضية التحكيم، وهي قضية غاية في الأهمية من حيث طرحها مسألة فلسفية وجودية تتعلق بمصير الإنسان وجوهر وجوده في الحياة؛ فهيرا، إلهة السماء والزواج، زوجة زيوس وأحبهنَّ إليه، مليكة الأوليمبوس، وصاحبة الحول والطول فيه، ربة التاج والصولجان، وصاحبة القوة والسلطان، ذات الجبروت. تعرض على باريس السلطان والثروة والقوة. وأثينة، إلهة الذكاء والحكمة والحرب، وربة الهدى والسبيل الحق، ربة الحكمة والحرب، وربة الروح الأعلى المقدس، تعرض على باريس الحكمة والذكاء وسداد الرأي. وأفروديتي، إلهة الحب والجمال والفتنة، تعرض عليه أجمل امرأة في العالم.[31]

كلٌّ منهنَّ تملك صفات تفوق الأخرى . والاختيار أو المفاضلة بينها ليس أمراً سهلاً . وما على باريس أن يختار ، إنه في موقف لا يحسد عليه .كلٌّ منهنَّ تفوق الأخرى بصفاتها وقدراتها . فماذا سيختار باريس ، ماذا ستختار أيها الإنسان ؟

إنَّ هيرا تمثل القوة التي لا يستغني عنها أي إنسان في الوجود. وكذلك فإنَّ أثينة تمثل الحكمة والذكاء والهدى، فهل يستغني عن ذلك أيُّ عاقل؟ وهل يستغني الإنسان عن الحب الذي تمثله أفروديتي؟

لقد اختار الأقوى تأثيراً، اختار الحب. وتخلَّى عن القوة والحكمة. فكان مصيره الذي جرَّ عليه وعلى قومه وأهله ووطنه كل الويلات.

[30] – هوميروس : الإلياذة . ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك ، ص 769 ومابعدها .

[31] – هوميروس: الإلياذة. ترجمة: دريني خشبة، المصدر السابق، ص16 وما بعدها.

إنَّ هذه الأسطورة تريد أن تضع الإنسان أمام خيارات أحلاها مرٌّ. والإنسان مسؤول عن خياراته. وعليه تحمل نتائج اختياراته. وتريد الأسطورة القول أيضاً عليك أيها الإنسان أن تكون أكثر حكمة باختياراتك، وعليك أن تنظر في نفسك أنت أيها الإنسان، مَنْ أنت ومما تكونت. ألست مكوناً من عقل وقلب وجسد؟ فإن أنت استغنيت عن إحدى هذه المكونات فقدت قدرتك وسيطرتك على نفسك. فلا أنت تستطيع أن تستغني عن أيٍّ من هذه المكونات إن أردت أن تكون إنساناً متوازناً مع نفسك أولاً ومع منْ أو ما يحيط بك. إنَّك بحاجة إلى العقل والقوة والقلب. وحين تُغلِّب أحدها، أو يستأثر بك أحدها فإنَّك ستفقد قدرتك وسيطرتك على نفسك. كلُّ هذه العروض كانت مغريةً، لكن باريس لم يختر من بينها إلاَّ ما ينسجم مع عمره وعواطفه وهواه، لقد اختار عرض أفروديتي، اختار الجمال والحب، وتخلَّى عن عرضين لا يقلان أهمية عن العرض الذي اختاره.

هذا الاختيار تجلَّى في "الإلياذة" على شكل نتائج، فقد سار باريس في الطريق الذي اختاره، وتمكن من قلب هيليني وعواطفها، وقبلت المجيء معه طواعية إلى طروادة؛ تاركة خلفها أهلها وزوجها وابنتها ووطنها. وهذا ما جرَّ على طروادة الويلات فيما بعد.

إنَّ فعل باريس وهيليني عمل لا أخلاقي في نظر المجتمع، ولا يرضى به أي إنسان، وإن سوَّغه من يقوم به. فهذا الفعل فيه إساءة لسمعة البلاد والعباد في كل مكان ولأخلاق الضيافة. فما بالنا لو كان الذين فعلوا ذلك من عِلْيَة القوم؟

لقد جرَّ هذا الفعل على الطرواديين واليونانيين ويلات كثيرة. ولكن ما حصل حصل. ونحن في "الإلياذة" نلاحظ ابتعاد هوميروس عن هذ الموضوع، وعن تلك الأسطورة؛ لأنها من خارج الموضوع الذي اختاره لملحمته وهو "غضبة أخيليوس"، وتوقف عند نتائجه، وهو الحرب وما حدث فيها، وما جرَّته على الطرفين.

فالأسطورة ، ومن بعدها "الإلياذة" – التي لم تصرح بشكل مباشر – تريدان إيصال رسالة عميقة الأبعاد مفادها: أن الحب والجمال شيئان ساميان وضروريان في حياة الإنسان، لكن بئس الحب والجمال الذي يقود إلى الهلاك والموت والدمار.

ب – الحرب وموقف هوميروس منها:

منذ البداية يلاحظ قارئ الملحمتين أن سبب الحرب كان بسبب امرأة خانت زوجها ودفعتها عواطفها للتخلي عن بيتها وزوجها وأهلها وابنتها ووطنها. فهي امرأة مرفوضة أخلاقياً في المجتمع. وهل تستحق مثل هذه المرأة أن يُضحَّى من أجلها؟ لقد اجتمع اليونانيون بكل قبائلهم للدفاع عنها وردها إلى زوجها ووطنها. ويصور هوميروس في "الإلياذة" بإسهاب المدن والبلدات التي جاءت للثأر ورد الشرف الذي أُهين على يد باريس خاصة، وعلى يد الطرواديين عامة. ولكن هل كان كل هؤلاء اليونانيين مقتنعين بكل ذلك؟ بالتأكيد لم يكن أغلب هؤلاء مقتنعاً بالحرب والهجوم على طروادة. وقد رأى كثير من الذين شاركوا في الحرب أو تمَّ استدعاؤهم لمحاربة الطرواديين أنهم ليسوا مستعدين لتحمل أخطاء الآخرين، وأن يُضحُّوا بأنفسهم من أجلهم، أو من لا يستحق التضحية، فباريس أخطأ وهيليني أخطأت أيضاً، وليس من أحد عليه أن يتحمل أخطاءهما وخطاياهما وآثامهما. وليس من المقبول إنسانياً وأخلاقياً أن يترك الإنسان وطنه وأهله ويشارك في حرب لا ناقة له فيها أو جمل. ومصير من يشارك غير معلوم، ربما يموت ولا يعود، وحتى لو تحقق لأصحاب الشأن، وهم هنا مينيلاؤس وأجاممنون، ما أرادا ، فماذا سينال هو من كل هذا؟ وهل يستحق أمثال هؤلاء التضحية؟ وقد رفض المشاركة في الحرب كثير من المحاربين، وأبرزهم أوديسيوس الذين حاول التهرب مراراً – كما تُحدِّثُنا الأسطورة – من المجيء والمشاركة في الحرب، لسببين اثنين؛ الأول: أن هيليني لم تقبل به زوجاً، وثانياً: لأن ما فعلته هيليني غير أخلاقي، ولهذا لا تستحق أن يُضحَّى من أجلها. وكذلك كان حال أخيليوس الذي عبَّر خير تعبير عن عدم رضاه عن هذه الحرب العبيثة وغير الأخلاقية. وفي سبيل مَنْ؟ في سبيل امرأة لا تستحق أن يدافع

عنها، وفي سبيل أجاممنون الجشع، الأناني الذي لا يرقى إلى مستوى الملوك الشرفاء الذين ترخص النفوس لحمايتهم والدفاع عنهم[32].

من خلال "الإلياذة" وما تقوله الأسطورة نلاحظ أن الاستعداد للحرب وتجمع الجيوش وما رافق ذلك من عقبات للتوجه إلى طروادة أخذ وقتاً طويلاً. قُدر بعشر سنين. وفيما بعد حصار طروادة الذي استمر تسع سنين أخرى، وبدء الحرب وتدمير طروادة كان في السنة العاشرة. هذا التسويف، والإطالة، والتلكؤ، قد راح ضحيته كثير من طرفي النزاع، مات الكثير، وترمَّلت نساء كثيرات، وهُجِّرت أوطان، وفُقِد أحباب. وكل ذلك بسبب استرداد امرأة خانت زوجها، ولا تستحق كل هذه التضحية. ألا يدل ذلك على أن هوميروس من خلال ما ذكره يريد أن يقول لمستعمه، وللقارئ فيما بعد: إنَّ على المرء أن يتأنَّى في اختيار قرارات مصيرية في حياته. وأنَّه من خلال وصفه الحرب الطويلة الدامية أراد أن يقول لا للحرب، لا للموت في سبيل أمور تافهة لا تستحق كل هذا الذي فعلتموه. وإنَّ التضحية الحقيقية لا تكون إلَّا في سبيل أهداف سامية نبيلة. أو كما عبر الشاعر العربي أبو الطيب المتنبي:

إذا غـــامرت في شـــرف مـــروم فـــلا تقنـــع بمـــا دون النجـــوم[33]

والحرب لا تورث إلاَّ الفواجع والأحزان والخراب والدمار والبؤس والشقاء والآلام. ألا يذكرنا هذا بما قاله زهير بن أبي سلمى في آثار الحروب وويلاتها:

وَمَا الحَرْبُ إلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ
مَتَى تَبْعَثُـوهَا تَبْعَثُـوهَا ذَمِيْمَةً وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُـوهَا فَتَضْـرَمِ
فَتَعْرُكُكُمْ عَـرْكَ الـرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحْ كِشَـافاً ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ

---

[32] – انظر هوميروس : الإلياذة ، الكتاب الأول ، ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك ، ص 125. وسيرد شاهد على ذلك بعد قليل من خلال حديثنا عن غضبة أخيليوس .

[33] – المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمَّى بالتبيان في شرح الديوان . ضبطه وصححه وفهرسه : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، 1936 ، ج4 ، ص 119 .

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ
فَتُغْلِلْ لَكُمْ مَا لاَ تُغِلُّ لأَهْلِهَا قُرَىً بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيْزٍ وَدِرْهَمِ[34]

أليس الظلم أن يموت الأبرياء من الناس، وأن تُرمَّل نساء، أو تُسبى، أو تفقد فلذات أكبادها ، أو تنتظر شوقاً ولهفة عودة زوجها، بنيليوبي مثلاً؟ أليس من الظلم أن تُدمَّر أجمل مدينة في العالم، أن تُدمر حضارة عريقة (طروادة) من أجل هدف تافه، لا يقبله العقل والمنطق، ولا يرتقي إلى المستوى الإنساني والأخلاقي؟

ويقرأ الدكتور فؤاد المرعي موقف هوميروس من الحرب قراءة أخرى استوحاها من إنسانية هوميروس وموقفه الأخلاقي. يقول:" إنَّ إنسانية هوميروس عظيمة إلى حدٍّ يتجاوز معه الشاعر الحدود الرئيسية في الأدب الملحمي البطولي. الشعر البطولي الملحمي هو، في العادة، أغنية للحرب باعتبارها التجربة التي نبرز قوى النفس، وهوميروس يمتدح الحرب فعلاً، ولكنه يلعن كوارثها وبشاعتها واحتقارها الفظ لكرامة الإنسان. هنا يتصارع في نفس هوميروس موقفان، الأول– امتداح الحرب وهو يعود بأصله إلى أخلاق الدوريين البدائية المتوحشة، والثاني– النفور منها وهو يعود إلى الأخلاق الجديدة، إلى الإيمان بالحق والسلام"[35].

ج – غضبة أخيليوس أسبابها الحقيقية وآثارها:

غضبة أخيليوس هي موضوع "الإلياذة". هكذا عبر هوميروس منذ البدء وحدد موضوعه حين طلب من ربة الشعر أن تعينه وتلهمه ليروي سرَّ هذه الغضبة التي عصفت بأخيليوس والنتائج المدمرة التي خلفتها. يعرض هوميروس السبب الرئيسي لغضبة أخيليوس منذ مطلع الملحمة وهو ذلك الخلاف الذي نشب بين أخيليوس وأجاممنون المتعلق بإعادة سبية أجاممنون إلى والدها. رفض أجاممنون إعادة السبية خريسئيس إلى

[34] – الزوزني ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد: شرح المعلقات السبع . لجنة التحقيق في الدار العالمية ، (بيروت 1992) ، ص78 وما بعدها.

[35] – مرشحة، محمد – المرعي، فؤاد: محاضرات في الآداب العالمية. منشورات جامعة حلب، 2004، ص 137.

والدها أولاً، ونهر والدها كاهن معبد أبوللون، الذي بدوره بثَّ همه إلى أبوللون ورجاه أن ينتقم من أجاممنون، فسلط أبوللون غضبه على اليونانيين، ونشر الطاعون بينهم تسعة أيام بلياليها. ثم، وتحت ضغط أخيليوس والشيخ نستور وما قاله العرَّاف كالخاس، وافق أجاممنون على إعادة السبية، ولكن بشرط أن يعطيه اليونانيون بديلاً عن هذه السبية ومساوية لها في الجمال وفي كل شيء، وإن لم يفعلوا، فإنه سيأخذ، أو كما ورد في "الإلياذة" يستولي على سبية أخيليوس أو أياس أو أوديسيوس، ولو بالقوة.[36] وهنا يستشيط أخيليوس غضباً مما سمعه من أجاممنون، أجاممنون ملك الملوك وقائد الحملة على الطرواديين. الذي تجرأ على التفكير بهذا الأمر وأهان الملوك وأبرز القادة والمحاربين. ويحتدم هذا الخلاف والنزاع بينهما، وينتهي بقرار أخيليوس اعتزال القتال والعودة إلى بلاده.

إذن غضب أخيليوس يبدأ من هنا كما تشير إلى ذلك "الإلياذة"، أي الذي أعلن عنه هوميروس وصرح به من خلال ما جرى بين أخيليوس وأجاممنون من خلاف حول موضوع السبية. ولو دقق القارئ في مجريات الأحداث وتطورها، وما تناثر بين سطور الملحمة فإنه واجد من دون شكٍّ أنَّ منشأ هذا الغضب لم يكن وليد هذه اللحظة، وإنَّما كان يتشكَّل ويكبر ويتضخم في نفس أخيليوس وغيره من المحاربين في الحملة منذ فترة أبعد من ذلك، وما هذا الحوار إلاَّ المحرض الحقيقي والشرارة التي جعلت أخيليوس يثور ويغضب من أجاممنون. فسلوك أجاممنون ، واستعلاؤه وما كان يقوم به من أفعال طوال مدة الحملة على طروادة لم يكن كل ذلك يرضي أخيليوس وغيره من المحاربين ومَنْ تحت إمرة أجاممنون. وجعلهم يتذمرون منه ويضيقون من سلوكه وتصرفاته، بحيث تراكم كل ذلك في صدورهم وكتموه طوال السنوات التسع التي مضت على حربهم مع الطرواديين. فالإنسان، أياً كان، يشعر ويحسُّ، ولديه كرامته، ومبادئه وأخلاقه، ولا يرضيه السلوك السيىء، ولا يتحمل الظلم، إنه يصبر، ويتحمل، ولكن ليس إلى الحدِّ

[36] – هوميروس : الإلياذة . ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك، المصدر السابق ، ص 124 وما بعدها .

الذي تُهان به كرامته. قد يتغاضى المرء عن بعض الأخطاء، ويتعالى عنها، خاصة في المواقف الحرجة، لكنه لن ينساها. وأخيليوس واحد من هؤلاء الشرفاء الذين لا يقبلون الظلم، والإهانة، كتم غيظه وضيقه وتذمره مما رآه من أفعال أجاممنون، وتغاضى عن كثير من الأخطاء التي صدرت عن أجاممنون. لكنه اليوم، وقد انكشف أجاممنون على حقيقته وطبيعته وأنانيته واستعلائه ومسَّ كرامته وشرفه وأهانه بهذه الطريقة، كان لا بدَّ أن يواجهه بالحقيقة، حقيقة استهتاره بالقيم الأخلاقية والإنسانية، وعدم احترامه الآلهة، وأن يضع حداً لكل أفعاله وتصرفاته التي ضاق بها الجميع. أخيليوس كان جريئاً، كان إنساناً، كان نبيلاً، كان يحترم الآلهة. لم ترضه أفعال هذا القائد، لا أخلاقياً ولا إنسانياً ولا إيمانياً. فوقف في وجهه وقفة رجولة وشهامة وإباء. ووضع له ولأفعاله حداً. وبيَّن له أنه لا يرقى إلى مستوى الملوك والقادة العظام الذين يفرضون احترامهم وتبجيلهم وطاعتهم. عرَّاه أمام الجميع وفضحه بما قام به من سلوك شاذ، وغير أخلاقي. وأراد أن يذكره وينبهه – وهذا ما لم يشر إليه هوميروس هنا في الكتاب الأول ، وإنما أشار إليه إشارة خافية في الكتاب التاسع[37] – أننا جئنا إلى طروادة من أجل استعادة هيليني وإرجاعها إلى زوجها ووطنها، وأن نثأر من الطرواديين الذين أهانوا شرفنا اليوناني. فإذا كنا نحن لا نرضى أن يُهان شرفنا من غيرنا، فكيف بنا نهين شرف الآخرين؟ إذن أنت ارتكبت الآن عملاً فظيعاً يفوق بكثير ما ارتكبه الطرواديون، الطرواديون غرباء، أهانونا، أما أنت فتهين أهلك، وجندك، ومن يحقق لك ولأخيك العزة والمنعة، ولليونانيين بالمطلق الكرامة والشرف. كيف تجرؤ على أخذ ما ليس لك، وممن؟ من أفضل قادة الجيوش اليونانية، مني أنا، ومن أياس، ومن أوديسيوس. ومن العار عليك وعلى أمثالك أن يطاعوا ويُحترموا ويقف المرء إلى جانبهم، لا في الحرب ولا في السلم.

[37] – انظر هوميروس : الإلياذة . الكتاب التاسع، ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك ، المصدر السابق ، ، ص 351.

ومع ذلك كان أجاممنون مصراً على موقفه، وعدم التنازل عن سبيته إلا بسبية تعادلها، وإن تطلب الأمر أخذها بالقوة فسيفعل. وما كان من أخيليوس إلا أن خاطبه بقسوة: " آه، يا مَنْ ترتدي رداء عدم الحياء! أيها الطماع المحتال! كيف تنتظر من أيٍّ من الآخيين أن يقدم عن طيب خاطر على تنفيذ ما تطلبه إليه من المشاركة في غارة أو القتال ببسالة مع المحاربين. إني لم آت هنا من أجل (الانتقام من) حاملي الرماح من محاربي طروادة، فهم لم يسيئوا إليَّ قط. إنهم لم يتحرشوا على أية صورة بأبقاري أو بخيلي، لا ولم يخربوا محصول الحبوب في أرض فثيا الخصيبة، منجبة الأبطال، فهناك الكثير الذي يفصل بينهم وبيننا، جبال داكنة وبحر هادر. ولكنا تبعناك إلى هنا لنرضيك! نعم يا مَنْ لا يعرف الخجل، حتى تسترد أنت ومينيلاؤس ما فقدتماه على يد الطرواديين – وهو الأمر الذي تتجاهله ولا تدخله في اعتبارك. والآن تهددني، أنت بالذات، بالاستيلاء على غنيمتي التي بذلت الكثير من الجهد في سبيل الحصول عليها، فمنحني إياها أبناء الآخيين، ومع ذلك فإني لم أحصل قط على غنيمة مثل الغنائم التي كنت أنت تحصل عليها كلما أسقط الآخيون مدينة مأهولة من مدن الطرواديين. إنَّ وطأة الحرب كانت تقع على عاتقي أنا، أما عند تقسيم الغنائم فقد كان لك النصيب الأكبر، بينما أعود أنا إلى السفن ومعي ما حصلت عليه بنفسي مهما كان ضئيلاً، بعد أن يكون القتال قد أخذ مني كل مأخذ. أما الآن فإني سأعود إلى فثيا، فإنه لأخفُّ وطأة على النفس أن أعود إلى الوطن في سفني ذات المقدمات المعقوفة، من أن أتحمل الإهانة هنا بينما أجمع لك الثروة وأسباب الرفاهية "[38].

إذن غضبة أخيليوس في الحقيقة ناشئة عن موقف إنساني وأخلاقي، وليست نابعة من مصلحة خاصة، أو أنانية. ولهذا فإنه حين حكَّم عقله – طبعاً هوميروس يستعين هنا بأثينة لتهدئة أخيليوس والتحلي بالحكمة[39]– وجد من الأفضل ألا يتمادى في الحوار

[38] – هوميروس : الإلياذة . ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك ، المصدر السابق ، ص 125 وما بعدها .

[39] – انظر المصدر السابق ، ص 127.

والنقاش العقيم مع أجاممنون، وألا يكون ردُّه، أي قتل أجاممنون، من نوع الخطأ الذي ارتكبه أجاممنون بحقه، وإنَّما تعالى عن ذلك كله، ارتقى خلقياً وإنسانياً حين أحجم عن إغماد سيفه في صدر أجاممنون. لأنَّ الإنسان موقف، وأخيليوس صاحب موقف في الحياة .

إذن السرُّ الحقيقي في غضب أخيليوس هنا، في هذا الموقف هو موقف أخلاقي، وليس من أجل سبية؛ من أجل امرأة، صحيح أنه أحب بريئيس، وأنها كانت جميلة. فليأخذها أجاممنون إن كان هذا يرضيه ويرضي شجعه وطمعه، أما هو، أخيليوس، فلن يغير مبدأه في الحياة، ولن يغير ما فيه من صفات الفروسية والشجاعة والكرم والنبل. ذهب بعيداً، متحسراً، وآسفاً على أخلاق رجال من أمثال أجاممنون، وكيف يُغلِّبون مصالحهم الشخصية وأطماعهم وشجعهم على المصلحة العامة؛ المصلحة الأخلاقية والإنسانية. انفرد بنفسه، يفكر، ويرجو الآلهة من خلال أمه أن تنتقم له من أجاممنون، وأمثاله، ولبَّت الآلهة رجاءه، وكاد اليونانيون يهزمون، وفعلاً هُزموا في مرات عديدة أمام الطرواديين، وأمام هيكتور الفارس الشجاع.

وحين تأزم موقف اليونانيين، وكثرت هزائمهم أمام الطرواديين، لم يجدوا بداً من الاستعانة بأخيليوس؛ ببطلهم الذي لم تنجب أمهات اليونانيين شبيهاً له في القوة والبسالة والشجاعة. لكن الملك العظيم أجاممنون أهانه إهانة بالغة. وقد حذر أخيليوس أجاممنون من إساءته له، وأنهم لا يستطيعون الثبات أمام هيكتور، وأنهم سيحتاجونه، لكنه لن يلبي ندءاتهم واستغاثاتهم، وها هو يعبر عن ذلك والألم يعتصر قلبه:" أيها المخمور، يا من له عينا كلبٍ (شرس) وقلبُ غزال (جبان)... أيها الملك المفترس لشعبه!...سأعلن كلمتي (مدوية) إليك وأُقسم عليها قسماً رهيباً... وسيكون هذا قسماً عظيماً بالنسبة لكم: ليأتين اليوم الذي يفتقد فيه أبناء الآخيين جميعاً أخيليوس! وفي ذلك اليوم لن يكون بوسعك بأية حال أن تمدَّ لهم يد العون مهما بلغ بك الآسى، حين يتساقط الكثيرون أمام هيكتور، قاتل الرجال.

ولكن قلبك سوف يتمزق ندماً لأنك لم تعامل خير الآخيين بما يستحقه من تبجيل"[40]. وما أشبه كلام أخيليوس بما قاله أبو فراس الحمداني بعد قرون عديدة:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهُمْ وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر[41]

يعترف أجاممنون أنه أخطأ خطأً كبيراً مع أخيليوس، وأنه تصرف بحماقة، ويعترف أن الغضب تملكه وعميت بصيرته، وتملكه الجنون، وفقد سيطرته على نفسه حين تحدث مع أخيليوس بتلك القسوة. لكنهم اليوم في مأزق، الهزيمة أمام الطرواديين، وقد راودته فكرة الهرب من الحرب والعودة إلى وطنه[42]، لكن ديوميديس لا يتقبل منه ذلك، ورفض العودة، وإن تطلب الأمر عودة أجاممنون وأخيه مينيلاؤس وقواتهم. أما اليونانيون فسيبقون في المعركة، إمَّا أن ينتصروا أو يموتوا، حتى لو تخلَّى عنهم أخيليوس في هذه المعركة المصيرية. وتحت ضغط نيستور يقبل أجاممنون الاستنجاد بأخيليوس، وصرَّح باستعداده لمصالحته، وأنه سيقدم إليه عروضاً كثيرة وثمينة من نساء، ومال، ومدن، وجاه وسلطان، وبنتاً من بناته الثلاث يختارها بنفسه على أن يتخلَّى عن غضبه ويذعن له، يقول أجاممنون:" كل هذا سوف أقدمه له إذا ما تخلَّى عن غضبه وأذعن، فإنَّ هاديس فقط هو الإله الذي يتَّصف بالعناد الشديد. فليذعن لي، فأنا أقوى منه سلطاناً، وأنا أتوسل إليه، رغم أنني أكبر منه سناً "[43]. المهم أن يرضى أخيليوس ويتراجع عن غضبه ويعود لنجدة اليونانيين. ويختار لهذه المهمة وفداً من خيرة اليونانيين، هم فوينيكس وأياس وأوديسيوس. ولكلٍّ من هؤلاء حظوة ومودة خاصة عند أخيليوس. ويحاول هؤلاء الأصدقاء بكلِّ السبل إقناع أخيليوس بالعودة إلى صفوف اليونانيين، لكن أخيليوس يرفض بقوة كل تلك العروض والإغراءات التي سيقدمها أجاممنون. ويعتذر

---

[40] – المصدر السابق ، ص 128 وما بعدها .

[41] – الحمداني، أبو فراس : ديوان أبي فراس الحمداني . شرح الدكتور خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط2 ، 1994 ، ص 165 .

[42] – هوميروس : الإلياذة . ترجمة : أحمد عتمان وفريقه المشارك ، المصدر السابق ، ص 338 .

[43] – المصدر السابق، ص 343.

لهؤلاء الأصدقاء الذين يكنُّ لهم كل الحب والمودة والاحترام. فالإهانة كانت كبيرة، والجرح الذي مني به عميق جداً، ولا شفاء له. ولن يسمح لأجاممنون أن يسيطر على روحه، وأن غضبه لن يهدأ. يقول:" إنني أكره هداياه، وهي لا تساوي عندي شيئاً، حتى لو أعطاني عشرة أضعاف أو حتى عشرين ضعفاً من كل ما يملكه الآن، وكل ما قد يحصل عليه من مكان آخر، ولا كل ما يدخل إلى أورخومينوس أو إلى إلى طيبة المصرية، حيث تمتلئ الخزائن بكل ما هو نفيس وقيم طيبة، إنَّ أجاممنون لن يسيطر على روحي، حتى لو أعطاني هدايا بعدد حبات الرمل، بسبب ما لحقني منه من إهانة. ولن أتزوج ابنة أجاممنون بن أتريوس، أبداً حتى لو كانت تباري أوروديتي ذهبية الشعر، جمالاً، أو لو كانت تقوم بما تقوم به أثينة، زرقاء العينين، من أعمال. لن أتزوجها أبداً. فإنني أعتقد أن لا شيء يساوي روح الإنسان، ولا حتى الثروات الضخمة التي يقال إنَّ مدينة إليون العامرة كانت تملكها وقت السلم، قبل مجيء الآخيين، ولا حتى كل ما يوجد في معبد أبللون الوضاء (فويبوس) الذي يسيطر على معبد بيثو (دلفي) الصخري. من الممكن أن يأخذ المرء غنائم من الثيران والماشية السمينة، ومن المقاعد الثلاثية، وكذلك من الجياد الشقراء، ولكن روح الإنسان لا تعود إليه مرة أخرى إذا ما أُزهقت وخرجت من بين أسنانه"[44].

هذه هي رسالة أخيليوس إلى أجاممنون؛ بل هي تمثل أخلاقه ومبادئه في الحياة. ومن يملك مثل هذه الأخلاق والمبادئ فمن الصعب أن يرضى أن يقبل الإهانة والذل في الحياة. فالإهانة عند أخيليوس وأمثاله الذين يملكون حساً أخلاقياً تكون مميتة، هي مسألة حياة أو موت، أن تكون أو لا تكون. ولا يمكن أن يتقبَّلها شريف ونبيل وفارس.

وما دام أخيليوس يتمتع بهذه الأخلاق العالية النبيلة، فإنَّه شديد الوفاء لأصدقائه وأحبابه، كريم وسخي في حبِّه لهم. وليس هذا فحسب، وإنَّما هو كذلك مع خصومه وأعدائه يبجلهم ويحترمهم ويقدر شجاعتهم، أمثال هيكتور بطل طروادة. ومثال أصدقائه هنا

[44] – المصدر السابق ، ص 352 وما بعدها .

باتروكلوس. فحين سمع بموت صديقه باتروكلوس كاد ينهار من الألم والفجيعة. خرج من عزلته، وأقسم أن يثأر له من هيكتور والطروادبين جميعاً. فقد تحول إلى غضب كامل، فَقَدَ السيطرة على نفسه وروحه وكيانه. وأخيراً حقق ما أراده، قتل هيكتور، ومثل بجثته – على الرغم من أن أخلاق الفروسية لا تقبل بذلك وترضاه – لكنه لم يتمالك نفسه حين قُتل صديقه الحبيب إليه ورآه جثة هامدة. قد يكون ما فعله أخيليوس مسوَّغاً لو دخلنا في سريرته، وعرفنا السرَّ الحقيقي لما يُقلقه من قبل أن يأتي إلى المشاركة في الحرب على طروادة. إنَّ أخيليوس يعيش أزمة نفسية، وخوفاً دائماً، وصراعاً مستمراً بسبب تلك النبوءة التي أخبرته أمه بها، وهي أنه سيموت على أسوار طروادة:"لقد أخبرتني أمي ثيتيس، فضية القدمين أن مصيري الذي يحمل لي الموت في النهاية مقسَّم بين أمرين: فإذا ما اخترت البقاء في مدينة طروادة لأحارب فلن تُتاح لي العودة، وإن كنت سأنال شهرة لا تزول. أمَّا إذا عدت إلى أرض وطني الحبيب فسأفقد سمعتي الطيبة، وإن كانت حياتي ستمتد طويلاً، إذ لن ألقى الموت سريعاً "[45]. كان أخيليوس يخاف من تحقق تلك النبوءة، ولهذا، ربَّما، كان نزاعه وخصامه مع أجاممنون دافعاً، أو فرصة سانحة للإبحار إلى وطنه الحبيب، والتخلص مما يعانيه من صراع يقضُّ مضجعه ليلاً ونهاراً. حتى لو فقد سمعته الطيبة، المهم أن يتخلص مما يعانيه ويؤرقه ويقلقه. لكن موت باتروكلوس غير كل شيء، عاد أخيليوس إلى الحرب، لكنه عاد هذه المرة ممتلئاً غضباً وحقداً وكرهاً على ما هو فيه. فها هو موته يقترب، ولا يفصله عنه إلاَّ خطوات. إنَّ قتله هيكتور، وتدمير طرواده انتصارٌ، وثأرٌ يُفرِحُهُ، ويُفرِحُ جميع اليونانيين، لكنه بالنسبة إليه نصر حزين، مليء بالحسرة والألم، إنَّ موت هيكتور سيتبعه موته هو. فما أتعس حال المرء حين يعرف موعد موته ونهايته؟ ومن هنا نفهم الآن تلك الروح الإنسانية النبيلة التي تكشفت عنها شخصية أخيليوس حين جاء برياموس الشيخ الجليل ملك طروادة ووالد هيكتور يطالب بجثة ابنه لتدفن في أرض طروادة. وكما يليق أن يدفن

[45] – هوميروس : الإلياذة . ترجمة : أحمد عتمان وفريقه المشارك ، المصدر السابق ، ص 353 وما بعدها .

الأبطال الذين ضحوا في سبيل أوطانهم الغالية عليهم. فقد جعلته كلمات بريأموس المؤثرة يهدأ، ويعود إلى طبيعته الإنسانية الراقية، ويكرم وفادة هذا الشيخ الجليل المتألم على فقد ابنه، ويقبل أن يسلمه جثة ابنه عن طيب خاطر، إذ لم يعد هناك شيء يقلقه ويزعجه، كل شيء توارى الآن، الغضب، والألم، والصراع الذي كان يعانيه تبدد وزال.[46]

3- الأبعاد الدينية :

يشير الباحثون إلى أن فهم الأدب اليوناني مرتبط ارتباطاً كلياً بالأساطير والدين، وما نتج عنهما من تفاسير تتعلق بحياة الإنسان وما يحيط به في الكون وما يعايشه من موجودات ومخلوقات. والحديث عن علاقة الدين بالفكر والأدب متشعب الاتجاهات والمسالك. وما يهمنا هنا الوقوف على الأبعاد الدينية وتجلياتها في ملحمتي هوميروس ودلالاتها. ومنذ البداية تطالعنا أسماء الآلهة التي كان يؤمن بها إنسانُ هاتين الملحمتين: فهناك زيوس رب الأرباب وكبير الآلهة، وأولاده ومن يمتُّ إليه بصلة القربى؛ هيرا، وأثينة، وأفروديتي، وأبوللون، وأرتميس، وبوسيدون، وآريس، وإريس، وهرميس، وغيرهم الكثير. وكان لكلٍّ من هؤلاء وظيفة اختصَّ بها. وكما نلاحظ في الملحمتين انقسام الآلهة بين طرفي النزاع الرئيسيين فقسم ناصر الطرواديين، أمثال: أفروديتي، وأبوللون، وآريس، وأرتميس. وقسم آخر ناصر اليونانيين، أمثال: هيرا، أثينة، بوسيدون، وآخرون. وسبب الخلاف وانقسام الآلهة بدأ منذ تلك الساعة التي حكم فيها باريس لإلهة الجمال أفروديتي. أما زيوس فهو يميل إلى الطرواديين، لكنه مع اليونانيين؛ أي كان متأرجحاً في موقفه. وكان طرفا النزاع يؤمنان إيماناً قوياً بما تأمر به هذه الآلهة، ويطيعون رغباتها، ويقدمون إليها القرابين والنذور في حياتهم. ومن كان يكثر من تقديم القرابين كان ينال الحظوة لدى هذه الآلهة، وتساعده وتحميه من الأذى والشرور، ويرتقي عندها إلى رتبة تعددت تسمياتها لديهم؛ فمنهم من كان ابن الإله، ومنهم من اتَّصف بشبيه الإله، أو نصف إله، أو قرين سليل الآلهة. وكذلك من كان يملك جمالاً، أو حكمة أو ذكاء، أو

[46] – انظر هوميروس : الإلياذة . ترجمة : أحمد عتمان وفريقه المشارك ، المصدر السابق ، ص 787 وما بعدها .

قوة، أو يبدع في شيء، أو يتميز عن الآخرين في أفعاله، فإنه يتصف بصفات الألوهية كما هو الحال في شخصيات: أخيليوس، وهيكتور، وأوديسيوس، وبرياموس، وهيليني وغيرهم الكثير من شخصيات الملحمتين. ولهذا فإننا وجدنا مناصرة الآلهة لهم والوقوف إلى جانبهم في جميع جوانب حياتهم وقت السلم ووقت الحرب، وفي الملمات، والمواقف الحرجة التي صادفتهم في الحياة. لكنهم كانوا غير قادرين على منح البشر الخلود، فالخلود من صفات الآلهة فقط، أما البشر فمصيرهم الفناء، ولا يتدخل الآلهة به. لهذا لم يستطع زيوس على ما له من قوة وجبروت وقدرة منح من أحبهم كأخيليوس وهيكتور الخلود. وإنما منحم خلوداً من نوع آخر، هو خلود ذكرهم على مرِّ الزمن بما قدموه من أفعال تشهد لهم. وهذا ربمَّا ما كان هوميروس يسعى إليه من خلال ملحمتيه. أي إنَّ خلود الإنسان مرتبط بأفعاله وما يُقدِّمه من خير على مدى حياته. فقد أصبح أخيليوس خالداً بجرأته وقوته وبسالته وأخلاقه، ومواقفه النبيلة حين وقف في وجه أجاممنون المحب لذاته، وحين أعاد لبرياموس جثة ابنه هيكتور. وكذلك غدا هيكتور خالداً باستبساله للدفاع عن طروادة وأهلها، ومواقفه الرائعة مع هيليني، وفي حبه لزوجته أندروماخي ووداعه الأخير الذي لا ينساه القارئ أبداً. وكذلك نال أوديسيوس، صاحب الحكمة والذكاء والدهاء والشجاعة، خلوداً في تاريخ اليونانيين ومن جاء بعدهم في كل أفعاله، وفي إصراره على الرجوع إلى وطنه وتمسكه بحبه لزوجته طوال سنوات الغياب الطويلة، على الرغم من المعاناة، والأهوال، والمشاق، والإغراءات التي تعرض لها.

ثالثاً : المرأة ودلالاتها الرمزية

ثمة أربع شخصيات أنثوية في "الإلياذة" تلفت النظر في سلوكها وتصرفاتها، ويحسن التوقف عندها وجلاء صورتها وما ترمز إليه كلٌّ منها. وهذه الشخصيات: هيليني، كليتمنسترا، بينيلوبي، أندروماخي. ومن خلالها تتراءى لنا أبعاد الرؤية الهومرية. فالمرأة عنصر أساسي في أي مجتمع، وعليها يتوقف بناء المجتمع وسلامة الأسرة. فهي إمَّا تبني وإما تخرب وتدمر. وهذه الشخصيات تنتمي إلى الطبقة العليا في المجتمع؛ طبقة

الملوك والأمراء والسادة النبلاء. بمعنى أنهن النماذج والمثال لطبقات المجتمع الأخرى. أو التي تنظر طبقات المجتمع الأخرى إليها نظرة احترام وإجلال، وتقتدي بها. وأي شيء يصدر عن هذه الطبقة وفيه مخالفة للأعراف والعادات والتقاليد والأخلاق سيكون وقعه أكبر لدى عامة المجتمع. فهيليني ذات الجمال النادر، وذات الحسب والنسب، وزوجة الملك مينيلاؤس أبرز ملوك الإغريق حين أحبَّت باريس، وغادرت بلادها معه إلى طروادة، ارتكبت أخطاء وآثاماً كثيرة بحقِّ نفسها أولاً، وزوجها ثانياً، وحقِّ بلادها وشعبها ثالثاً، فقد أهانت بفعلها هذا كل شيء يتعلق بالعادات والأخلاق والقيم الإنسانية، حتى جمالها أُهين، وجرَّ فعلها هذا الويل للإغريق والطرواديين. وسقطت من أعين الجميع، سقط الجمال أمام الامتحان، وتلوثت السمعة العطرة، وتغيرت الصورة الزاهية المشرقة التي كانت تتمتع بها في مجتمعها، ولدى المجتمع الآخر (الطرواديين) وحتى لدى المجتمعات الأخرى على مدى التاريخ. إنَّ إهانة الجمال هو إهانة لكل القيم السامية الأصيلة، وحين يُهان الجمال يُهان كلُّ شيءٍ. فقد أُهينت طروادة المقدسة بكلِّ من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، وضاعت معالمها، وكذلك فقد الإغريق بسبب هذا الجمال أعزَّ ما لديهم من رجال وشباب، ورُمِّلت النساء، وفقد الأطفال والأبناء آباءهم. فهيليني، ممثلة الجمال، كانت شؤماً ونقمة على الجميع. فالجمال إذا لم نصنه ونحميه ونحافظ عليه سيقودنا إلى الهلاك ولا نستحقُّ امتلاكه. وربمَّا هذا ما أراد هوميروس أن يُلمِّح إليه، أو يرسله إلى متلقيه.

وكذلك كان سلوك زوجة أجاممنون كليتمنسترا خسيساً ودنيئاً؛ فقد استغلت غياب زوجها وعشقت ابن عمِّ زوجها أيجيستوس، وتآمرت مع عشيقها للتخلص من زوجها حين عودته من الحرب. لم تكن وفيةً لزوجها؛ بل كانت آثمةً وعديمة الأصل وناكرةً للجميل.[47]

[47] – انظر هوميروس : أوديسة هوميروس. ترجمة: أمين سلامة. دار الأدباء، الجزء الأول، (القاهرة) 1960، 63،72، 103.

وهوميروس يدين هذا النوع من الحبِّ القائم على الخيانة والإثم إدانة سافرة، فكما لم يرض على أفعال هيليني، رفض هنا ما فعلته كليتمنسترا. وهوميروس يُقدِّسُ الحبَّ السامي والعلاقات الزوجية والأسرية، وهذا ما نجده في شخصيتي أندروماخي وبينيلوبي؛ هاتين الشخصيتين نادرتي الوفاء لزوجيهما. وهذا الوفاء نابع من كونهما تربيتا تربية أصيلة، وإلى كونهما تُقدِّسان الحبَّ، ومخلصتين لزوجيهما إخلاصاً لا نظير له. فأندروماخي كان القلق والخوف لا يفارقانها منذ بدء الحملة على طروادة، كانت خائفة على زوجها، وعلى طفلها، وعلى نفسها، وعلى ابنها، وعلى طروادة ونسائها وأطفالها. تقول لهيكتور وهي تحمل طفلها:" آه يا زوجي! قوتك هي التي ستقضي عليك، إذ لا ترحم طفلك الرضيع، ولا ترحمني أنا، حيث عما قريب سأمسي أرملتك، بعد أن يجهز عليك الآخيون ويفتكون بك. ومن الخير لي أن أهبط تحت الأرض قبل أن تضيع مني، فلا راحة لي بعدك إذا حان أجلك، ولن يبقى لي شيء سوى الآلام بعد أن فقدت أبي وأمي الملكة ... فأنت لي يا هيكتور الأب والأم الرؤوم، أنت لي الأخ، وأنت الزوج الهمام. فيلكن عندك رحمة بي، وابق هنا عند البرج، لكي لا تحيل طفلك يتيماً وتترك زوجتك أرملة"[48]. ويرد عليها أنه لا يستطيع البقاء هنا، وأنه لا شيء يعدل حبه لها، لكن طروادة تناديه، ويجب أن يدافع عنها وعن الجميع.

إنَّ دعوة أندروماخي لهيكتور بالبقاء قريباً منها، لا يعني أنها لا تعرف واجب زوجها، لكنه الحب، والوفاء لمن تحب، هي تعرف أنه سيلقى حتفه قريباً، ولذا ما تُحسُّه غير ما تقوله بلسانها.

أما بينيلوبي فتمثل قمة النبل والأخلاق والوفاء. وهي مثال للمرأة الصبورة المتحملة فراق زوجها وحاميها وملك البلاد قرابة ثلاثين سنة. بقيت محافظة على حبها لزوجها ووفائها له طوال غيابه الطويل. لم تستسلم لليأس، ولم تفقد الأمل يوماً برجوعه إليها، وقاومت كل أنواع الإغراءات التي عرضها عليها الراغبون بالزواج منها حين أُشيع خبر موت أوديسيوس. فقد

[48] – هوميروس: الإلياذة . ترجمة: أحمد عتمان وفريقه المشارك، المصدر السابق، ص 279 وما بعدها.

كان أوديسيوس في قلب بنيلوبي وروحها موجوداً دائماً، لم يفارقهما لحظة. كانت تنتظر والأمل يحدوها بلقائه ثانية. وبحكمتها وذكائها استطاعت تسويف قرار اختيار الزاوج ممن تقدم إليها. لأنَّ قلبها لا يزال يخفق بحبِّ أوديسيوس الذي يمثل بالنسبة إليها الأمان، والاطمئنان والسكينة. وبالمقابل عانى أوديسيوس الكثير في طريق عودته إيماناً منه بأن بينيلوبي تعني الاستقرار السلام.[49]

من هنا يمكن أن تكون هاتان الملحمتان دعوة إلى السلام والاستقرار والأمان، ودعوة إلى رفض الحرب وويلاتها. على أنَّ هاتين الملحمتين تقولان أكثر من ذلك دائماً، وما قدَّمْتُهُ في هذه الدراسة ما هو إلاَّ محاولة للاقتراب من رؤية هوميروس الكونية وفلسفته في الحياة.

[49] – انظر هوميروس : أوديسة هوميروس. ترجمة: أمين سلامة. المصدر السابق، ص 74، 83 ومابعدها، 140، 143، 153.

المصادر والمراجع

1- أرسطو :كتاب أرسطوطاليس في الشعر. نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي. حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية الدكتور شكري محمد عياد. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993.

2- الأسد، ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار الجيل، بيروت، ط 8، 1996.

3- باولي، باري بي : هوميروس. ترجمة: محمد حامد درويش، مراجعة: شيماء طه الريدي، مؤسسة هنداوي سي آي سي 2019.

4- البستاني، سليمان: مقدمة ترجمة "الإلياذة" في: هوميروس: الإلياذة. ترجمة: سليمان البستاني . كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة2011. (وقد ظهرت ترجمة البستاني لهذه الترجمة بعنوان: "إلياذة هوميروس معربةً نظماً وعليها شرح تاريخي وأدبي وهي مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعره وآداب اليونان والعرب ومذيلة بمعجم عام وفهارس . بقلم سليمان البستاني . طبع بمطبعة الهلال بمصر عام 1904).

5- الحمداني، أبو فراس : ديوان أبي فراس الحمداني. شرح الدكتور خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط2 ، 1994.

6- خفاجة، محمد صقر: تاريخ الأدب اليوناني (سلسلة الألف كتاب 61)، مكتبة النهضة المصرية 1956.

7- الزوزني، أبو عبدالله الحسين بن أحمد: شرح المعلقات السبع. لجنة التحقيق في الدار العالمية، بيروت 1992.

8- عتمان، أحمد: الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً. سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد77، مايو، سنة 1984.

9- سلامة، أمين: مقدمة ترجمة "أوديسة هوميروس". (الترجمة الكاملة عن الأصل اليوناني المقارن). ترجمة: أمين سلامة، دار الأدباء، الجزء الأول، (القاهرة) 1960.

10- عتمان، أحمد: مقدمة ترجمة "الإلياذة". في: هوميروس: الإلياذة. ترجمة وتحرير: أحمد عتمان ومشاركة لطفي عبد الوهاب يحيى ، السيد عبد السلام البرواي، منيرة كروان، وعادل النحاس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2008،2.

11- ليفن، هاري : انكسارات. مقالات في الأدب المقارن. ترجمة: عبد الكريم محفوظ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1980.

12- ماجواير، لوري: هيلين طروادة من هوميروس إلى هوليوود. ترجمة: محمد حامد درويش، مراجعة: نيڤين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي سي آي سي، 2018.

13- المتنبي: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمَّى بالتبيان في شرح الديوان. ضبطه وصححه وفهرسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1936.

14- مرشحة، محمد – المرعي، فؤاد: محاضرات في الآداب العالمية. منشورات جامعة حلب، 2004.

15- مندور، محمد: الأدب وفنونه. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة- القاهرة ، د.ت. .

16- نيهاردت، أ.أ.: الملحمة الإغريقية القديمة. ترجمة: الدكتور هاشم حمادي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1994.

17- هوميروس: الإلياذة. ترجمة: أمين سلامة، دار الفكر العربي، ط2 ،1981.
18- هوميروس: أوديسة هوميروس. (الترجمة الكاملة عن الأصل اليوناني المقارن). ترجمة: أمين سلامة، دار الأدباء، الجزء الأول، (القاهرة) 1960.
19- هوميروس : الإلياذة. ترجمة: دريني خشبة، دار العودة، بيروت، 1985.
20- هوميروس : الإلياذة. ترجمة وتحرير: أحمد عتمان ومشاركة لطفي عبد الوهاب يحيى ، السيد عبد السلام البرواي، منيرة كروان، وعادل النحاس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008.
21- يحيى، لطفي عبد الوهاب: عالم هوميروس. في: مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الثاني عشر، العدد3، اكتوبر- نوفمبر- ديسمبر، 1981.